





The Asfari Institute for Civil Society and Citizenship معهد الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة www.activearabvoices.org



النقابات الدينية والشكوى المسيحية المزمـــنة وسام سعادة



النقابات الدينية والشكوى المسيحية المـزمـــنة

من سوء التمثيل في لبنان

وسام سعادة

أستاذ مادتي «الفكر السياسي العربي المعاصر» و»الحضارة العربية الإسلامية» في معهد العلوم السياسية في «جامعة القديس يوسف» في بيروت

حـــــول معهـــــد الأصفــــرى فــــــي الجامعـة الّأميركيةُ فــــی بیـــــــروت

يسلعي معهلا الأصفاري للمجتملع المدنلي اللذاريعملال المعهلا على دعلم الوعللي والمواطنــة، وهــو مركــز أبحــاث للعلــوم العــام بــدور المجتمــع المدنــي لرصــد وتحليــل الاجتماعيـة عـن المنطقـة العربيـة, إلـى تمتيـن الجســور بيــن الأكاديمييــن والنشــطاء وصانعــى السياســات وعمـــوم المهتميــن لإستكشــاف كافــة الأشــكال التقليديــة أو المبتكــرة لدعــم عمليــات الديمقراطيــة التشــاركية, ومســاءلة جهــود المجتمــع المدنــى وتكريــس مبــادئ المواطنــة الفعّالــة فــى العالــم العربـــي.

أشــكال المبــادرات المدنيــة المختلفــة فـــي مجــالات القانـــون والحوكمـــة والثقافــة وإدارة الصراعــات فـــى المنطقــة، ويحــاول نشــر أنماطًــا جديـــدة لتثميــن هـــذه المبــــادرات عبــر عقـــد الاجتماعــات الشــهرية والنــدوات والمحـــاضرات وورش العمـــل والمؤتمـــرات والنـــدوات, فضــلًا عـن المدوّنـة الخاصـة بالمعهـد, بالإضافـة إلـي مطبوعــات المركــز.

فــى هـــذا الإطــار، يركّــز المعهــد علــى تنظيــم ويُعــدٌ معهــد الأصفــرى شــريكًا فاعــلًا بالجامعــة ورش وبرامـج عمـل تدريبيــة للشـباب والصحفييــن الأميركيــة فـــى بيــروت, يشــارك فـــى إثــراء والنشطاء إلى جانب قيامته بمهام البحث الأكاديمــى وإنتــاج المعرفــة داخــل وخــارج الجامعــة الأميركيــة فــى بيــروت. كمــا يقــوم بتطويــر اختصــاص ثانــوى عــن المجتمــع المدنــى المعهــد بتنظيــم فــرق بحثيــة جماعيــة فــى والفعــل الجماعــى علــى مســتوى التعليــم مجــالات متعلّقــة بالمشــاركة السياســية العالــى. وأخيــراً وليــس آخــراً, يقــوم المعهـــد والمســاءلة والحوكمــة الرشــيدة؛ إضافــة الــى إصــدار توصيــات لدعــم مشــاركة المواطنيــن والمواطنــات، وتعزيــز دور المجتمــع المدنــي فــي الوســاطة النــزاع ومــا بعــد النــزاع. والمــداولات والتنظيــم الذاتـــي.

إلتــزام الجامعــة بخدمــة وتثقيــف والتفاعــل مــع المجتمــع اللبنانـــي. ويقــوم المعهــد حاليًــاً بتنميــة برامجــه البحثيــة الثــلاث: المجتمــع المدنــى والقانــون والحوكمـــة؛ الثقافــة كمقاومـــة؛ المجتمــع المدنــى فــى ســياقات

P.O. Box 11-0236 Riad El Solh, Beirut 1107 2020, Lebanon www.aub.edu.lb/asfari



+961-1-350 000-1 ext 4469



⊠ asfariinst@aub.edu.lb



ActiveArabVoices.org



AsfariInstitute

Bridging Academia and Activism

حــــــول الـمشــــــروع سلســلة مــن الأوراق البحثيــة عــن مســيحـيي الشــرق الأوســط

تســعى هـــذه السلســلة مـــن الأوراق البحثيــة إلى تجاوز الخطابات السائدة حـول مسـيحيى الشــرق الأوســط باعتبارهــم كتلــة متجانســة, والتركيــز علــى قضايــا بعينهــا بغيـــة فهـــم وتحليــل مواقــف مســيحيى الشــرق الأوســط المختلفــة مــن التحــولات السياســية التـــي شــهدتها المنطقــة خــلال الســنوات الأخيــرة. وقـد تـم اسـتكتاب عـدد مـن الباحثيـن المتميزيـن لتغطيــة جوانــب تمكّننــا مــن فهـــم أكثــر دقــة للاختلافــات بيــن تجــارب المســيحيين فـــى السـياقات الوطنيــة فــى كلّ مــن لبنــان وســوريا ومصــر والعــراق والأردن وفلســطين, بهــدف تقديــم رؤيــة أكثــر تعبيــرًا عــن تعقيــدات هـــذه القضيـة علـى مسـتوى المنطقـة العربيـة ككلّ, وعلنى مستوى المجتمعيات الوطنينة بشبكل أكثــا تفصــــلًا.

وتأتــي الأوراق الثــلاث الأولــى عــن المســيحيين والتحــولات السياســية خــلال الســنوات الأخيــرة فــي مصــر ولبنــان لتؤكّــد أن المســيحيين ليســوا كتلــة واحـــدة متجانســة، لا إقليميًــا ولا حتــى وطنيًــا. فــلا يمكــن التعامــل مــع المســيحيين باعتبارهــم جماعــة واحــدة، فهــم متنوعــون دينيًـا بيــن جماعــات مختلفــة كالأرمــن، والكلــدان، والسـريان، والآشــوريين، ومنقسـمون كنســيًا إلــى أرثوذكـس، وكاثوليــك، والطوائـف البروتســتانتية. كذلــك الحــال سياســيًا، إذ لا يعــرف المســيحيون حزبًــا واحــدًا يعبّــر عــن مواقفهـــم السياســية،

بــل ينقســمون إلــى أحــزاب وتنظيمــات سياســية متنوعــة. ففــي لبنــان، يتقاســم المجــال المسـيحي حزبـان كبيــران همــا القــوات اللبنانيــة والتيــار الوطنــي الحــر، إلــى جانــب أحــزاب وحــركات مسـيحية أخــرى. إضافــة إلــى ذلــك، ينتمــي قســم كبيـــر مـــن المســيحيين إلــى حــركات أو أحــزاب لا تحمــل الطابـع المســيحي بالضــرورة، بــل وتدحــض التقســيم الطائفــي كمـــا هـــو الحـــال فـــي تنظيمــات يســارية لبنانيــة عديـــدة.

لهــذا، فــإن أي عمــل بحثــي يســعي للتعامــل مــع قضيــة مســيحيى الشــرق الأوســط, يجــب أن يبــدأ مــن نقطــة أساســية, ألا وهـــى كســر فرضيــة كونهــم صــوت موحّــد خلـف مــا يُســمّـى بــ «مســيحيـى الشــرق الأوســط», وكذلــك تنــاول هــذه الظواهــر كتعبيــرات متمايــزة بيــن إثنيــات، وكنائـس، وأحــزاب وحتـــى ميليشــيات متعــددة لا تتعـاون بالضـرورة فيمـا بينهـا, بـل قـد تتصـارع فــي الكثيــر مــن الأحيــان. ونتيجــة لهــذا التنــوع فـإن التفاعـل الرئيسـى بيـن الفاعلين المسـيحيين المختلفيــن قــد يكــون التنافــس حــول مَــن يمثّــل «الصــوت المســيحي». وهــذه هـــي الملاحظــة الثانيــة التــى تشــاركت فيهــا الأوراق الأولــى مــن هــذه السلســلة, حيــث عكســت تقلّــب المجــال المســيحي فيهـــا بشــقيه الدينـــي والسياســـي، وطرحت أشكال للتنافس فى بعض الأحيـان إلى نـزاع حـول الجهــة التــى تمثّـل صـوت المسـيحيين تجــاه مؤسســات الدولــة وأيضــا تجــاه الخــارج.

وعلــی حیــن، تشــکّل مصــر حالــة فریــدة تحتکــر فيهــا الكنيســة القبطيــة تمثيــل الصــوت المسيحى على المستويين الدينى والسياسى فــى ظــل الأغلبيــة العدديــة القبطيــة التــى تتجــاوز ٩٠% مــن عمــوم المســيحيين المصرييــن, بالإضافـة إلـى غيـاب أحـزاب سياسـية أو حـركات قبطيــة تنــازع الكنيســة صلاحياتهــا, علــى الأقــل حتــی قیـام ثــورة ۲۰ ینایــر ۲۰۱۱, وهــو مــا أشــار إليـه الدكتـور جـورج فهمـى فـى ورقـة بعنـوان «مــن يتحــدّث باســم الأقبــاط: أزمــة التمثيــل السياســـى للمســيحيين فـــي مصــر مــن مبــارك للسيسـى»، عـن الرمــوز المسـيحية التــى أسّسـت أو انضمّــت إلــى أحــزاب سياســية, مســتغلّـة انفتـاح المجـال السياسـي فـي مرحلـة مـا بعـد ٢٠١١. نجـــد أنّ عـــودة الاســـتقطاب الإســـلامــى-المدنى بعد صعود جماعة الإخوان قد أضعفَ مــن قــدرة تلــك الأصــوات علــى الحركــة قبــل أن تختفـی تمامًـا بعـد پولپو/تمــوز ٢٠١٣. طـرح هــذا الأمــر علــى المســيحيين أســئلة مختلفــة عــن آليــات مواجهــة الســلطوية. هنــا, عرضــت «ليديــا على» نمــاذج عــن هـــذه المحــاولات فــى ورقــة بعنـوان «حركـة الأحـول الشـخصية للأقبـاط: ثـورة الأقبـاط الصعـرى فــي مصـر»، عــن تأثيـر الربيــع العربـى علـى عـدد مـن الفاعليـن الأقبـاط الجـدد وتشجعيهم على الانخراط في المجال الديني والسياســي علــي المســتوي الوطنــي كمــا هــو الحــال مــع حركــة «شــباب ماســبيرو» وحركــة «الحـق فـى الحيـاة».

وفي ظل هـذا التنــوع بيــن الفاعليــن المسـيحيين يمكـن فهــم طبيعــة تعاملهــم مــع موســم الانتقــالات السياســية التــي شــهدتها منطقــة الشــرق الأوســط خــلال العقديــن الأخيريــن. فالتغييــرات السياســية تأتــي بقواعــد جديــدة للعبــة السياســية تفــرض علــى الفاعليــن المســيحيين فرصًــا وتحديــات جديــدة. وهــذا هــو الهــدف مــن هــذه السلسـلة مــن الأوراق البحثيــة الهــدف مــن هــذه السلسـلة مــن الأوراق البحثيــة التــي يطــرح معهــد الأصفــري أول ثــلاث ورقــات منهـــا ويأمـــل تواصــل نشــر الإنتــاج المتعلّــق منهـــذه القضيـــة الهامــة لمبــادئ المواطنــة وقبــول التعدديــة, ســواء الدينيــة أم الإثنيــة, فــي إطــار الـــدول العربيــة الوطنيــة.

قائمة المحتويات

- 2 حـــــول معهـــــد الأصفــــري فـــــيالجامعــة الأميركيــة فــــي بيــــــــروت
 - - **9** ملخّص
- 12 أولًا: «التفــــــــاوت فــي التشـــكّل» بيــن الطـــوائف اللبنــانيـة, والانتقـــال من إشكاليـة «التجســيد» إلـــى إشــكاليـة «التمثيــل» فــي الحالـــة المارونيـــة
- 17 ثانيًا: فــي أســاس الشــكوى المســيحية مــن ســوء التـمثيــل: التمييــزبيـن مناصفــة إســلامية مســيحية كاملــة.. وأخــرى ناقصــة
- 21 ثالثًــــا: الحــدث المؤســس للشـــكوى مــن ســوء التمثيــل: انتخابــات ۱۹۹۲ والمقاطعــة المسيحية الواسعة لها وتداعيات الموضوع
- رابعًــا: صعــود دور الكنيســـة فــي مرحلـــة الســورية و«الإحبـــاط المســيحــي»

- 27 خامسًا: مانيفتسـو «الإرشـاد الرسـولي»: لتجريـد الخصـم مـن سـلاحه بالمصالحـة والسـلام
- 30 ســـادسًــــا: النقــــــابــــــة الدينيـــــةـ فـــي مرحـــــلة «إستعـــــــادة السيـــــــادة»: نموذج مارونيّ ... بروحيّة بولونيّة
- 33 سابعًــا: تراجــع دور الكنيســـة بعد الإنسحاب الســوريّ واســتقالة صفيــر، وتبــدّل وظيفــة «النقـــابـة الدينيـــة»
- 36 ثامناً: «النقابية الدينية» في بداية «الجمهورية اللبناية» واليصوم: «الجمهورية اللبناية» واليسوم: عندما كان لا يــزال ممكناً لشــارل دبّــاس أن يكــون أوّل رئيــس للجمهوريــة, ولرجــل ديــن مســلم ســني أن يترشــح للرئاســة
 - **39** تاسعــاً: بكركي في الصــراع. الصــراع على بكركي



ملخّص

تُهيْمـن في لبنـان الكنيسـة المارونيـة إلـى حـد كبيـر علـى المجـال الدينـي, نتيجـة للأغلبيـة العدديـة المفترضـة, لكنّـه فـي ظـل وجـود أحـزاب سياسـية مسـيحية قويـة كالقـوات اللبنانيـة والتيـار الوطنـي الحـر, نـرى فـي لبنـان واقعًـا سياسـيًا مختلفًـا عـن مصـر مثلًا, حيث تنفرد الكنيسـة القبطية بتمثيل الصوت المسـيحي على المسـتويين الدينـي والسياسـي. أمـا فـي لبنان, فقـد اكتفـت الكنيسـة المارونية برعاية الشـكوى المسـيحية مـن سـوء التمثيل بعـد انتهـاء الحـرب الأهليـة وغيـاب الصـوت السياسـي المسـيحي دون أن تتّخـذ لنفسـها هـذا الـدور, كمـا يوضّـح وسـام سـعادة فـي ورقتـه «النقابـات الدينيـة والشـكوى المسـيحية المزمنـة مـن سـوء التمثيـل فـي لبنـان». يحاجـج سـعادة, بسـردية تـروي مراحـل تبـدّل العلاقة بيـن الكنيسـة والأحـزاب اللبنانية, أنّ «اليميـن الجماهيـري» المسـيحي فـي لبنـان, ممثـلًا اليـوم بالثنائـي العونـي – القواتـي, لـم يعـد يحتـاج إلـى أي دور رعائـي مـن طـرف الكنيسـة, التـي باتـت تتقبّـل القواتـي، لـم يعـد يحتـاج إلـى أي دور رعائـي مـن طـرف الكنيسـة, التـي باتـت تتقبّـل هـخه «الهامشـية» الحاليـة.

يبحثـون عـن قانـون جديـد للانتخابـات النيابيـة بيـن «ترجمــات» مختلفــة لمقولــة «صحّــة التمثيــل»، وهــى مقولــة ظهــر بالتجربــة أنّهــا لا تضبــط نفســها بنفســها فــى الســياق اللبنانـــى, بــل تعنـي شـيئاً مختلفـاً تمامـاً إذا أريـدَ بهــا تمثيــل القــوى السياســية بالشــكل الأفضــل المناســب لحجمها, أو مساعدة المكوّنات المختلفة مـن المجتمع لتوسعة قاعدة التمثيل البرلماني الخــاص بهــا. هـــى بمعيــار التشــكيلات الأكثــر تنظيمًـا ومراسًـا وحيــازةً للمــوارد مختلفــة عنهــا بمعيـــار الفئــات الأكثــر ضعفًــا فـــى المجتمـــع. ليســت هـــى نفســها مــن زاويـــة المناطــق أو مـن زاويـة الطوائـف, كمـا أنّ «مـا يـراد» تمثيلـه يفتــرض أنّـــه غيــر ثابــت وســاكن بــل يضيــق ويتسع ويتحـوّل ويتبـدّل, فـى حيـن غلبـت نظـرة سـكونية علــى النقــاش اللبنانــى حــول أفضــل الســبل لصحّـــة التمثيــل, كمــا لـــو أنّ الأوزان السياســية المـــراد حســن تمثيلهـــا هـــى أوزان راكــزة ومزمنـــة، وكمــا لـــو أن هـــدف قانـــون الانتخـاب محصـور بإجـراء «صـورة فوتوغرافيــة» بعــد ذلــك بنــوع «الفيلتــر» المــراد اعتمــاده لتجميــل ألـــوان هــــذه الصـــورة, ولعبـــة الضـــوء والعتمــة فيهــا.

عبثــاً حــاول اللبنانيّــون التوفيــق, فيمــا هــم يبقــى أنّــه، فــي فوضــى «صحّــة التمثيــل» يبحثــون عـن قانــون جديـد للانتخابـات النيابيـة بيــن اللبنانيّــة، ثمّــة خطــاب نجـــح فـــي «اســـتيطان» «ترجمــات» مختلفــة لمقولــة «صحّــة التمثيـل», هـــذه المقولــة بشـــكل مثابــر فـــي الســـنوات وهـــي مقولــة ظهـــر بالتجربــة أنّهــا لا تضبــط الأخيــرة. ليـس هنــاك نســخة أحاديـة ولا ثابتة لهذا نفســها بنفســها فـــي الســياق اللبنانــي، بـــل الخطــاب، لكــن مــا يجمــع قنـــوات بثــه وتداولــه تعنــي شــيئاً مختلفـاً تمامـاً إذا أريــدَ بهــا تمثيــل المســيحيين القـــوى السياســية بالشـــكل الأفضــل المناســب فــي المؤسســات الدســتوريّـة اللبنانيّــة، وخاصــة العـــومــا المختلفـة مــن فــي مجلـس النــوّاب، منــذ نهايــة الحــرب الأهليــة، المجتمــع لتوســعة قاعـــدة التمثيــل البرلمانــي وطيلــة مرحلــة الوصايــة العســكرية والأمنيــة الخــاص بهــا. هـــي بمعيــار التشــكيلات الأكثــر الســـورية علـــى لبنــان، وصــولاً إلـــى مرحلــة مــا تنظيمًــا ومــراسًـا وحيــازةً للمــوارد مختلفـة عنهــا بعــد الجــلاء الســـوريّ، وحتـــى اليـــوم.

يتعلّــق غــرض هـــذه الورقــة البحثيــة بهــذه الشــكوى المســيحية المزمنــة مــن ســوء التمثيــل فــي «الجمهوريــة الثانيــة» وبالكيفيــة التـــي علّــل بهـــا رافعــو هـــذا الخطــاب أســباب ســوء التمثيــل هـــذه وشــروط معالجتـــه، فـــي حيــن تتمحــور الورقــة حــول دراســة الــدور الــذي لعبتـــه المؤسســات الدينيـــة المســيحية ليــس لعبتــه المؤسســات الدينيــة المســيحية ليــس فقــط مــن جهــة تبنــي ومواكبــة هــذا التشــكّي فقــط مــن جهــة تبنــي ومواكبــة هــذا التشــكّي المزمــن، بــل أيضــاً مــن ناحيــة تطويــره ســردية مركّبــة معنيــة بالربــط بيــن ممارســة خطابيــة تتعلّــق بتســطير «دور للمســيحيين» مــن حيــث هــمّ المســيحيين، وبيـن ممارســة خطابيــة تتعلّـق باســتمـرار الشــكوى مــن ســوء التمثيــل الفعلــي

لهـم رغـم مراعـاة التمثيـل التوزيعـي للمقاعـد، مناصفـةً, بيـن المسـيحيين والمسـلمين, بموجـب اتفـاق الطائـف، وبشـكل تناسـبي بيـن الطوائـف الفرعيـة، أي الجماعـات الكنسـية المختلفـة عنـد المســيحيين، والجماعـات المذهبيــة المختلفــة عنــد المســلمين.

والإشــكال هــو: هــل يختــزل دور الكنيســة فــى الرعايــة «الأبويــة» للفاعليــن السياســيين المشـــتكين مـــن ســـوء تمثيــل المســيحيين، أم يمتــد إلــى إســباغ قيــادات سياســية مســيحية بالطابع «التمثيلي» على دســاب أخــرى؟ مــا هــي مكانــة الــدور الــذي تلعبــه الكنيســة فــي الاجتمـاع السياسـيّ المسـيحيّ فـي لبنـان اليـوم؟ ومــا هـــو الــدور الــذى لعبتــه وتلعبــه القيــادات الكنســية فــى بلــورة الشــكاوى مــن «ســوء تمثيـل» المسـيحيين فــى المناصــب والمقاعــد والوظائـف المنصـوص عليهــا دســتوريًا أو عرفًــا أنّهــا لهــم فــي الدولــة اللبنانيــة؟ هــل الطائفــة الدينيــة جماعــة مطلبيــة؟ - أي أنّ لديهــا علـــي الحوام مـا تطالب بـه مـن «حقـوق» ليسـت هــى الحقوق بالمعنى المدني للكلمـة المبنـي على مفهـوم المواطنـة للفـرد, ولا الحقـوق بالمعنـى الاجتماعــى للكلمــة المبنــى علــى مكتســبات مكرّسـة للقـوى المنتجـة, وإن تقاطعـت «حقـوق الطائفــة» مــع هــذا المفهــوم مــرة ومــع ذاك المفهــوم مــرة, أو ناقضتهمــا مــرات.

ولئــن كان التركيــز قــد جــرى فــى معظــم

المسعى إذاً, ومــن خــلال الحالــة المارونيــة بشـكل أساســي, لدراسـة «الوظيفـة التظلميـة» للهيئــات الدينيــة, وإذا كان مــن الممكــن النظــر إلــى الكنيســة بوصفهــا «النقابــة الدينيــة» المطالبــة علــى الــدوام بحقـــوق أبنــاء رعيتهــا فــي الدولــة, أقلّــه مــن حيــث الممارســات الخطابيــة المتداولــة بكثــرة, ثــم كيــف تتفاعــل القــوى السياســية المســيحية مــع هــخه الوظيفــة «التظلّميــة المســيحية مــع هــخه الوظيفــة «التظلّميــة المســـتدامـة» للكنيســة.

أُولًا: ‹‹التفــــاوت فــي التشــكّل›› بيـــن الطــــوائف اللبنـــانية، والانتقـــال مـــن

لا تعنـى الطائفـة الشـىء نفسـه سوسـيولوجيًا إذا تكلمنــا عــن طائفــة مارونيــة أو أرثوذكســية أو أرمنيــة أو طائفــة شــيعية أو ســنية أو درزيــة. وثمـــة قبـــل كل شـــيء تفـــاوت أساســـي فـــي التحديــد القانونــي للمقصــود بالطائفــة فـــي لبنــان. فالكلمـــة تســـتخدم لتعنـــى أتبــاع كل كنيســة مســيحية علــى حــدة, فــي حيــن أنهــا تُستخدم لتعني أتباع كل مذهب إسلامي, إنّما علــى قاعــدة الدمــج بيــن المذاهــب الفقهيــة السـنية المختلفــة فــى طائفــة واحــدة. أكثــر مـن هـذا, إبّــان اسـتفتاء ١٩٣٢ التأسيســى للغايــة بالنســبة للهاجــس الديموغرافــى المحمــوم بيــن الطوائــف، ولــ "علــم الحســاب الطائفــي" إن جازفنـا بالتعبيـر, كان مطلـب قيـادات سـنيّة بـارزة احتســاب الشــيعة والــدروز والعلوييــن فــى عــداد السـنّة, جريـاً علــى المأثــور العثمانــى, الــذى كان يقــرّ بملّــة إســلاميّة واحــدة، فـــى مقابــل ملــل مسيحية ويهوديــة متعــددة. والحــال أنّــه جــرت المحافظـة جزئيًـا علـى هــذا المأثــور العثمانــى. ففــى لبنــان هنــاك "مفتــي الجمهوريـــة"، أعلــى رأس الهــرم بالنســبة لرجــال الديــن الســنّـة، وهـــو في نفس الوقت موظف فئـة أولى في الدولة اللبنانيــة، وبالتالــى يســاهم جميــع المكلفيــن، مســلمين ومســيحيين، فــى دفــع راتبــه. وليــس فــى لبنــان "مفتــى جمهوريـــة" للشــيعة مثــلاً, علمــاً أنّ أحــد المطالــب الشــيعية (الــذى تراجــع مـع الوقـت) هــو تحقيــق المــداورة فــى هــذا المنصب. وعمومــاً, لــم تســتكمل الجماعــة

الشـيعية عمليــة تبلورهــا كطائفــة سياســية, إلا أي اســتقلالها الإداري عــن العبــاءة الســنية, إلا فــي نهايــة الســتينيات مــن القــرن الماضــي, مــع قيــام المجلــس الإســلامي الشــيعي الأعلــي, وهــو هيئــة مختلطــة مــن رجــال ديــن ومدنييــن (أُقــرّ إنشـاءه عـام ١٩٦٧, وانتُخبــت هيئتــه العامــة بعــد ذلــك بســنتين), علمًــا أن هـــذا المجلــس يتبــع مــن الناحيــة الإداريــة الرســمية رئاســة يتبــع مــن الناحيــة الإداريــة الرســمية رئاســة مجلـس الــوزراء الســنية. توفّــر ميزانيــة رئاســة مجلـس الــوزراء الســنية. توفّــر ميزانيــة رئاســة مــن الإفتــاء الســني (الجمهــوري) و"الجعفــري" ومشــيخة العقــل عنــد الموحديــن الــدروز.

أمّــا مــن الناحيــة المسـيحية, فالطوائــف كانــت هــي الجماعـات الكنسـية المختلفـة منذ تشـكيل لبنــان الحديــث. بخــلاف المفتــي, ليــس البطريــرك موظفًـا فــي الدولــة اللبنانيــة ولا يتقاضــى منهــا راتبًــا أو مخصصــات, إلا أنّ قــرارًا صــدر فــي عهــد الرئيــس الراحــل شــارل حلــو, ولــم يتم العمــل به إلا فــي التسـعينيات, تخصّـص فيــه الدولــة مســاعحــة فــي التسـعينيات, تخصّـص فيــه الدولــة مســاعحــة للطوائــف المســيحيــة مـــن ميزانيتهـــا, يُقتطــع منـــ مبلــغ للمحاكــم الروحيـــة, والمطرانيــات. يبقـــى أنّ الكنيســة شــخصيــة معنويــة منفصلــة عـــن الشــخصيــة المعنويــة للدولــة, وليــس هـــذا عـــن اللهِقتـاء الــذي هــو جــزء مــن الوظائــف التــي حــال الإفتــاء الــذي هــو جــزء مــن الوظائــف التــي تنهــض بهــا الدولــة اللبنانيــة. فالدولــة مســيحيــة مــن جهـــة المســيحيين علـــى قاعـــدة الفصــل بـــن شـخصيــة المســيحيين علـــى قاعـــدة الفصــل بـــن شـخصيــة المعنويــة وشـخصيــة الكنيســة, بـــن شـخصيــة المعنويــة وشـخصيــة الكنيســة, بــن شـخصيــة المعنويــة وشـخصيــة الكنيســة, بـــن شـخصيــة الكنيســة, بـــن شـخصيــة المعنويــة وشـخصيــة الكنيســة, بـــن شـخصيــة الكنيســة, بـــن شـخصيــة المعنويــة وشـخصيــة الكنيســة, بـــن شـخصيــة المســــة وســـة وســــة وســــة وســـة المـــــة وســــة وســـة وســــة وســــة وســـة وســــة وســـة وســـة وســـة وســــة وســــة وســــة وســـة وســــة وســـــة وســــة وســـــة وســــة وســـــة وســــة وســــة وســـــة وســــة وســـــة وســـــة وســـــة وســــة وســــة وســــة وســـ

إشـكالية «التجسـيد» إلى إشـكالية «التمثيل» فــى الحالــة المارونيــة

وهـــى إســلامية مـــن جهـــة المســلمين, علـــى الكيــان اللبنانــــىّ تطــوّر مــن الجهــة المســيحية جملــة وظائفهــا كدولــة.

> أمـا فـى المقلـب الآخـر, فلئـن تشـكّلت الطوائـف الإسلامية اللبنانيـة تباعًـا علـى صعيـد تحقّقهـا الإداريّ وتنظيــم أحوالهــا كمــا علــى صعيــد تكريـس حـدود فاصلـة لــ "حصّتهــا فــى الدولــة", أى توجّـب علـى الـدروز ثـم الشـيعة ثـم العلوييــن "نــزع التســنن الإداريّ" عــن وجودهـــم, تدريجيًــا وليـس فوريًــا, فــى الكيــان اللبنانـــى المســتقل, فـي أوقــات متتابعــة، فــإنّ مــا حــدث مــن الجهــة المســيحية كان معاكسًــا. فـــي مرحلـــة مؤتمــر الصلـــح فـــی فرســـای، وقبـــل تشـــکل الکیـــان اللبنانـــى الموســع لعــام ١٩٢٠ (لبنــان الكبيــر)، شـكّل الحـدّ مـن نسـبة ونفـوذ الـروم الأرثوذكـس هاجسًـا أساســيًا بالنســبة إلــى الكنيســة المارونيــة, التــى فضّلـت أن يمتــد الكيــان اللبنانــــّ ليضم المناطق الشيعية في البقاع والجنـوب, علـــى أن يمتـــد ليشــمل وادى النصــارى الـــذى بقــى مــن حصّــة الكيــان الســورىّ الحديــث. لكــنّ

قاعــدة الدمــج العضــوي لوظيفــة الإفتــاء فــي بشــكل تليينــي ثــم تذويبــي للاختلافـات اللاهوتية والهوياتيـــة بيــن أتبــاع الكنائــس المختلفــة لتكريـس الهيمنــة المارونيــة علــى بقيــة المسـيحيين و"مورنــة" هــؤلاء بمعنــى مــن المعانــى، مــا يعــود أساسًــا لتشــكّل أيديولوجيــا لبنانيــة تولــى الاهتمــام الأكبــر لتوطيــد عــرى التحالـف بيـن "البحـر والجبـل", أي بيـن البرجوازيــة المصرفيـــة والتجاريـــة، التـــى يتشـــكّل الجـــزء الأكبــر مــن عائلاتهــا مــن أبنــاء الطوائــف غيــر تصـدّرت هــذه الزعامــة الكنيســة نفســها كمــا فــى أيّــام البطريـــرك إليــاس الحويــك، أو قفــزت إلى الواجهـة زعامـات الحزبيـات الشـعبية الجبـل لبنانيـــة. وبنتيجــة هـــذا التحالــف، والأكثريــة العدديــة السـاحقة للموارنــة مقارنــة بالطوائــف المسيحية الأخرى, كما بنتيجة تراجع المناكفة الأرثوذكسـية مـع الكيانيـة اللبنانيـة أكثـر ممـا كان متوقعًــا فـــى البــدء، صــار مـــن الممكــن الحديــث عــن ســيرورة "تمــورن" سياســي (ونفســى؟) للمســيحيين مــن غيــر الموارنــة فــى

> لا تعنــى الطائفــة الشــىء نفســه سوســيولوجيًا إذا تكلمنـا عـن طائفـة مارونيـة أو أرثوذكسـية أو أرمنيــة أو طائفــة شــيعيـة أو ســنيـة أو درزيــة.

لبنــان، بلــغ مــداه عنــد الاســتقطاب الدمـــوي فـى الحـرب اللبنانيــة، وبالــذات حــرب الســنتين، وتعمّــق أكثــر، بنتيجــة خضــوع الكرســيين البطريركييــن للــروم الكاثوليــك بالدرجــة الأولـــي, والـروم الأرثوذكـس، بدرجــة أقـل، لنفــوذ النظـام الســورى, بخــلاف وضــع الكنيســة المارونيــة. هنــاك مســاران إذاً: واحــد, باتجــاه "نــزع التســنن الإداريّ", سلكه الـدروز والشـيعة والعلويـون بعد نهايــة الحقبــة الثمانيــة، وآخــر باتجــاه "مورنــة المسيحيين مـن غيـر الموارنـة". وهـذا دخـل حيّـز الاستخدام الخطابي, بحيث صار يُقحّم مجمـوع المسـيحيين كــ "طائفــة واحــدة", فــى مقابــل الطوائــف الإســلامية المختلفــة, بعــد أن كانــت تُقـدّم الأخيـرة علـى أنّهـا "مذاهـب فـى طائفـة واحــدة"، وتجــذّر الأمــر مــع "رجعــة" الاســتقطاب المذهبــي الحــاد بيــن الســنّـة والشــيعة, فـــي العقــد الأخيــر، وانقســام المســيحيين لســنوات لكــن التشــخص الإثنـــيّ للطائفــة يختلــف مـــن طويلـة بيـن الأقـرب سياسـيًا للسـنّة وبيـن الأقـرب سياســــئا للشـــــــعة.

كذلـك، يسـتتبع التفـاوت بيـن التحديــد القانونــي والانتظــام الإدارى للطائفــة الدينيــة مســيحيًا وإسلاميًا أن التحديــد المســيحـى يعطــى مجــالًا للتشـخيص الإثنــي للطائفــة. المثــال الأوضــح هـــو المثال الأرمني, فالأرمين أقليـة – قوميـة لغوية, لكـن مــا يحصّــن حقوقهــم القوميــة – اللغويــة فى لبنــان, هــو تعيّنهــم كأبنــاء كنائــس أرمنيــة مختلفــة. أمّــا الأكــراد أو التركمــان مـــن الســنّـة فـى لبنــان فــلا يحــوزون علــى المعطــى نفســه، إذ يفتـرض التنظيــم اللبنانــي للطوائـف أنّهــم جــزء مــن الطائفــة الســنّية, لا أكثــر ولا أقــل, مثلمــا يفترض التنظيم اللبنانى للطوائف أن الشافعية والحنابلـة جـزء مـن هـذه الطائفـة, مـع أن الإفتـاء الرسمى فيهـا هـوعلـى المذهـب الحنفـى, جريًـا على منهاج الدولـة العثمانيـة.

جماعــة مســيحية إلــى أخــرى. نظــام الملــل الدينيـــة المســيحية العثمانيــة ســمح بتطــور

> هنــاك مســاران: واحــد, باتجــاه 'نــزع التســنن الإداريّ", ســلكه الــدروز والشــيعة والعلويــون بعــد نهايــة الحقبــة الثمانيــة, وآخــر باتجــاه 'مورنــة المســيحيين مــن غيــر الموارنــة''

خــواص قوميـــة ذاتيــة غيــر مكتملــة لمعظــم هــذه الملــل, لكــن بالنتيجــة, نجــح القســم البلقانــي منهــا فــي تحقيــق نفســه قوميــاً مــن خــلال الانفصــال التدريجــي لــكل واحــدة مــن الملــل البلقانيــة عــن الكنيســة اليونانيــة الأرثوذكســية, وإحيــاء لغتهــا القديمــة كلغــة ليتورجيــة, ثــم تحويــل هـــذه اللغــة الليتورجيــة, بعــد تحديثهــا وتوســيع معجمهــا, إلــى لغــة أدبيــة وقوميــة, وربــط الجماعــة بتــراب خـاص بهـا وبشــكل إســتبعادي للجماعـات الأخــرى مــن هــذا التــراب, وبســردية عــن وجودهــا المســـتقل فــي المـرحلــة مــا قبــل العثمانيــة.

الأقليــات المســيحية فــي البلــدان العربيــة ذات الأكثريــة الإســلامية المرتفعــة لــم تســلك هــذا المســار، لأنّهــا قمعــت بشــدّة حيــن بـــدت أنهــا قمعــت بشــدّة حيــن بــدت أنهــا أو لأنّهــا وجــدت أنّ الأنســب لهــا الرهــان علــي خطــاب الاندمــاج السياســي بالتشــكيلات خطــاب الاندمــاج السياســي بالتشــكيلات الكيانيــة الوطنيــة مــا بعــد العثمانيــة, والسـعي للمواءمــة فــي نفــس الوقــت بيــن اســـتقلالها الذاتــي كجماعــة دينيــة وبيــن تقليــل وتضييــق الذاتــي كجماعــة دينيــة وبيــن تقليــل وتضييــق أشــكال التمييــز الســلبي ضــدّ أبنــاء رعيتهــا مــن قبــل الدولــة أو المجتمــع). لكــن "النمــوذج البلقانــي منزلــة بيــن منزلــة بيــن منزلــة بيــن منزلــة بيــن منزلــة بيــن منزلــة الدينيــة إلــى ملــة قوميــة – دينيــة (فرغــم أن الإســم الرســمــي للطائفــة هــو دينيــة (فرغــم أن الإســم الرســمــي للطائفــة هــو دينيــة (فرغــم أن الإســم الرســمــي للطائفــة هــو دينيــة (فرغــم أن الإســم الرســمــي للطائفــة هــو

أن تجـرى محـاولات لــ "إحيائهــا" القومــى, وبقيت "الفرنكوفونيــــة" جزئيـــة ونخبويـــة وبعيـــدة عـــن توطيــد "الثنائيــة اللغويــة" التــى بالــغ الأب سليم عبـو فـى تقديـر وجودهـا فـى المجتمـع المســيحي. وحتــى الدعــوات التــي عرفــت بالإحيائيــة "الفينيقيــة" بقيــت محــدودة التأثيــر مارونيًا, خصوصًا أنّ أوّل ما تصطدم هو مسيحية الجماعـة واحترازهـا مـن "وثنيـة" الفينيقيين), ولا هـو اقتـدى بالنمـوذج المعمـول بـه فـى العـراق وســوريا ومصــر لفتــرة طويلــة (بــل تطــوّر داخــل البيئــة المارونيــة خطـاب أسـطوري تجـاه ماضــي الجماعــة يعتبرهــا فــى منــأى مــن الأســاس عــن الخضوع المديـد لأحـكام أهـل الذمّـة فـي العصـر الإســلامـى, خلافــاً للطوائــف المســيحية الأخــرى التــى عــاب عليهــا الموارنــة "ذمّيتهــا"), وليــس صحيحًـا أيضًـا أنّــه احتفــظ بالنمــوذج العثمانــيّ للملّـة الدينيـة كمـا كان (جماعـة تحكـم نفسـها بنفسـها تحـت قيـادة رجـال الديـن فيهـا). قـام هــذا النمــوذج الســردي والخطابــي علــى قاعــدة "خصوصيـة" العلاقـة بيـن الموارنـة ولبنـان نسـبـة إلى علاقـة الطوائـف الأخـرى بالفكـرة اللبنانيـة, أى كمــا لــو أنّ الطوائـف الأخــرى "تتمــورن" بقــدر مــا "تتلبنــن"، وكمــا لـــو أنّ الشــعور بالانتمــاء للمارونيــة هـــو الشــعور بالإنتمــاء للبنانيــة بالنســبة للموارنــة. فــى نفــس الوقــت, أبقــى هـــذا النمـــوذج الســـردى علـــى عنصـــر "الحيـــرة

"الكنيســة الســريانية الأنطاكيــة المارونيــة" فقــد

ضعفت فيها السريانية كلغة ليتورجية بــدل

الدراميــة" داخلــه, بيــن النوســتالجيا للبنــان الصغيــر (متصرفيــة جبــل لبنــان) وبيــن "الإيمــان" بلبنــان الكبيــر (الــ ۱۰٤٥٢ كلــم۲), ومــا يتيحــه ذلــك مــن حركــة إنتقــال مشــهدية بيــن هذيــن الحدّيــن للفكـــرة اللبنانيـــة.

حصتهــم فــي الرئاســة والنيابــة والوظيفــة العامــة "لا يمثـّـل" الموارنــة كفايــة, ســواء تمثيــل الــروح" المارونيــة نفســها.

منـذ قيـام لبنـان الكبيـر عـام ١٩٢٠, انقسـم التاريخ السياســي للموارنــة إلــى حقبتيــن، واحــدة تركّــز فيهــا الهــمّ علــى الحفــاظ، إن لــم يكــن علــى الأرجحيــة المارونيــة, فعلــى الصــدارة التأسيســية للكيــان، وثانيـــة انتقــل فيهــا الهـــمّ إلــى الدفــاع عـن المناصفـة بيـن المجموعـة المسـيحية التــى يهيمــن عليهــا الموارنــة، وبيــن المســلمين، رغـم المتغيّـر الديموغرافـى وتحـوّل المسـلمين إلـى أكثريــة عدديــة. يمكــن بالتالــى المجازفــة بالتمييــز بيــن زمنيــن، مميزيــن، إنمــا متداخليــن أيضًا, زمـن كانـت الإشـكالية فيـه, فـى الخطـاب المارونــي, هــى إشــكالية "تجســيدية" (الموارنــة كتجســيد للفكــرة اللبنانيــة، ولبنــان كتجســيد للــروح المارونيـــة), وتحقّــق فيــه منســوب عــال مــن "المورنـــة" السياســية, والثقافيـــة أيضًــا, للمسيحيين مـن غيـر الموارنـة، بـل مـارس فيــه النمــوذج المارونــى فــى بنــاء الطائفــة كجماعــة دينيــة وسياســية فــى آن تأثيــره علــى الطوائــف المسطمة). ثــم زمــن انتقلــت الإشــكالية فيــه لتكــون إشــكالية "تمثيليــة", ليــس لأن الموارنــة يعتبــرون أنّ حصتهـــم غيــر كافيـــة, بــل لوجــود تيــارات واســعة ضمنهــم تعتبــر أنّ مــن يتولــى

الانتقـال كان إذًا مــن محوريــة "صحّــة التجســيد" إلــى محوريــة "صحّــة التمثيــل", فــى إطــار خطــاب الدفــاع عــن "المناصفــة الكاملــة" بــدلًا مــن المناصفــة الاعتباريــة، وهـــو دفــاع خاضــه الموارنـة باسـتراتيجيتين فـى ربـع القـرن الأخيـر: ١ – اعتبار الأكثريـة العدديـة الإسلامية غيـر كافية لتعديــل ميثاقيـــة "كل شـــىء نصــف بالنصــف" لأنّ الميثــاق يقـــوم علـــى عقـــد شـــراكة بيـــن المســـلمين ككل, والمســيحيين ككل, أيـــاً يكـــن عـدد الأنفـس فـى الفئتيـن, فـإذا لـم تحتـرم هـذه القاعــدة صــار مــن المشــروع البحــث عــن صيغــة لبنانيــة أخــرى مــن البــدء. ٢ – تفســير انخفــاض عــدد المســيحيين نســبة للمســلمين بهجــرة المسـيحيين خـارج لبنــان, وبهجــرة المســلمين نحــو لبنــان، وبالتالــى، ربــط الشــكوى المزمنــة مـن سـوء التمثيـل "الفعلـى" للمسـيحيين نسـبـة إلـى تمثيلهــم الشــكلي المتناصــف, بالشــكوى مــن قانــون التجنيــس لعــام ١٩٩٣، الــذى وسّــع الهــوة العدديــة لصالــح المســلمين, أو الضغــط مــن أجــل "اســـترجاع الجنســية" للمهاجريــن المســيحيين مــن أجيــال عديــدة, خصوصــاً فــى الأميركيتيــن، مــن أجــل إعــادة

فــى مطلــع كتابــه «فــى الدولــة الطائفيــة» يتســاءل مهــدى عامــل: «الولايــات المتحــدة, مثـلاً، وهــى مــن أكبــر الديموقراطيــات الغربيــة، إن لـم تكـن أكبرهـا علـى الإطـلاق – تضـم عـدداً مـن الطوائـف هــو أضعــاف مــا يضمــه لبنــان منهـا, فلمــاذا يُعــد المجتمــع فيهــا متجانســاً, بينمــا هــو متعــدد فــي لبنــان؟›› (فــي الدولــة الطائفيــة, دار الفارابــي, ط۲ ۱۹۸۹, ص۲۳). جوابــه لأن فـــى لبنـــان «الطوائــف ليســـت طوائــف إلا بالدولـة – لا بذاتهـا, كمـا يوهــم الفكـر الطائفــى -, والدولـة فـى لبنـان هـى التـى تؤمّـن ديمومـة الحركـــة فـــي إعــادة إنتــاج الطوائــف كيانــات سياســية هـــى, بالدولــة وحدهــا, مؤسســات». ويتابـع مهــدى عامــل, «أليــس طريفًــا, وذا دلالــة بالغــة, تصــب فــى مــا نقــول, أن تكــون الطوائــف بحاجــة إلــى اعتــراف الدولــة بهــا, حتــى تكتســب جــدارة الوجـــود؟ فـــإذا لـــم يكـــن اعتـــراف بهـــا, كان وجودهــا ســرّيًا, خفيًــا, خارجًــا علــى القانــون, وخارجًـــا, بالتالـــى, علـــى الوجـــود؟» (ص ٢٤).

بيد أنّ حاجـة الطوائف هـذه إلى اعتـراف الدولـة بهـا, تتخـذ أشـكالًا لامحـدودة, منهـا مـا يظهـر فـي حركـة الانتقـال ضمـن الاجتمـاع السياسـي المسـيحي مــن مركزيــة خطــاب «تجسـيديّ» مــزدوج (المارونيــة كتجسـيد للفكــرة اللبنانيــة, والدولــة اللبنانيــة كتجسـيد للــروح المارونيــة حون أن تكــون الدولــة بحــد ذاتهـا مارونيــة) إلــى خطــاب «تمثيلــي الهاجــس» مــزدوج هــو أيضًــا فصــل المناصفــة الإســلامية المســيحية عــن «قانــون العــدد», وقيــاس المنســوب «الفعلــي»

فمـا يجمـع التنويعـات المختلفـة علـى خطـاب التشـكّى المزمـن مـن سـوء تمثيـل المسـيحيين عمومًا، والموارنـة خصوصًا، فـى المؤسسات الدسـتورية هــو نظـرة مشـتركة إلــى المناصفــة التى أقرّها اتفاق الطائف فى المقاعد النيابية والوزاريــة بيــن المســيحيين والمســلمين, عوضًــا عــن الأرجحيــة المســيحية قبلــه. فالمناصفــة فــى توزيــع المقاعــد بيــن نــواب مســيحيين ونــواب مســلمـين لا تضمــن مــن تلقائهــا ألا يأتــى قسـم مـن النــواب المسـيحيين بأصــوات الناخبيــن المســـلمين أكثــر مــن القســم مــن النـــواب المسلمين الذيـن يأتـون بالترجيـح المسـيحـى في دوائرهــم المعنيــة. وهكــذا طــوّر خطاب التشــكّي المزمـن فـى ربـع القـرن الأخيـر فـى لبنـان أدبيات تمييزيــة بيــن نوعيــن مــن المناصفــة: المناصفــة الشــكليّة أو التوزيعيـــة, والمناصفــة الفعليّــة أو الناجــزة. بحيــث تحــوّل تقريــب الحالــة الأولــى مــن الثانيــة (بالرفــع الإضطــرادي لعــدد النــواب المســيحيين, «كاملــى الدســم» أو المنتخبيــن مـن المسـيحيين بالأسـاس) إلـى هـدف متواصـل للعمــل السياســي المســيحـى فــى البلــد.

غيــر هــذه النظــرة المشــتركة, يمكــن أن يختلــف خطــاب التشــكّي المزمــن فــي العيــار, ووجهــة التهديــف, وكذلــك فــي تقديــر حجــم الظلــم التمثيلــيّ اللاحــق بالمســيحيين: مــا بيــن مــن يذهــب إلــى أنّــه فــي القوانيــن الإنتخابيــة المعمــول بهــا منــذ انتهــاء الحــرب, غــداة وبعيــد مرحلــة الوصايــة الســورية, فــإنّ أقليّــة فقــط مــن النــواب المســيحيين وصلــوا بأصــوات

المســيحيين، وبيــن مــن يبــدى موقفًــا أكثــر احترازيــة. هـــذا ناهيــك عــن البديــل المقتــرح عــن القوانيــن والسياســات المعتبــرة مجحفــة بحــق المســيحيين، وهنــا المروحــة تتوســع مــن المطالبــة بــأنّ تنتخــب كل طائفــة نوابهــا علــى حــدة (حالـــة مشــروع «القانـــون الأرثوذكســـى» عــام ٢٠١٣, ومفارقتــه أنــه نــصّ علــى أن تنتخــب کل طائفـة نوابهـا علـی حـدة فـی نظـام تصویـت أكثـرى, لكنــه اعتبــر أن المســيحيين مندمجــون کفایـــة فیمـــا بینهـــم کـــی لا یُمیَّــز بینهــم بیـــن مارونــى وأرثوذكســى وكاثوليكــى ويمكــن احتســابهم ملّــة إنتخابيــة واحــدة, فــى مقابــل دوائــر مختلفــة للشــيعة والســنّة والـــدروز والعلوييــن), وبيــن البحــث عــن أفضــل صيغــة حســابية ممكنــة للرفــع مــن نســبة النــواب المسـيحيين الآتيـن بأصـوات مسـيحيين مـن دون التنصيـص علــى ذلــك بــأى شــكل مباشــر فــى بنــود القانــون).

ولئـن كان التظلّـم والمظلوميــة مــن عوائــد مختلــف الطوائــف اللبنانيّــة, أقلّــه علــی مســتوی درجــة تــرداد مفــردات التظلّـم والمظلوميــة فــي الخطــاب السياســي واليومـــيّ للقـــوی النافــذة داخلهــا, فمــا يميّــز الشــكوی المســيحية المزمنــة مــن ســوء التمثيــل عــدة أشــياء أبرزهــا:

ا – أنّ المناصفة الإسلامية المسيحيّة نفسها، التي تعتبـر فـي هـذا الخطـاب «غيـر مطبّقـة» فعليـاً, ومطبقـة شـكليّاً فقـط، تعتبـر مــن زاويــة أخــرى تمثيــلا زائــداً للمســيحيين مقارنـةً بنســبتهم الإجماليـة مــن عــدد الناخبيـن.

۲ – أنّ الشــكوى المزمنــة مــن ســوء التمثيــل المســيحـيّ ربطــت نفســها بشــكل مركزى بمــا يعــود للمســيحيين رســمياً بموجــب نصـوص الدسـتور, والعـرف, وبموجـب الاتفاقــات المعقودة, أيّ المناصفة البرلمانيـة والحكوميـة, ومارونيــة كل مــن رئاســة الجمهوريــة وقيــادة الجيـش وحاكميـة المصـرف المركـزيّ. فيمـا يخص المناصفة, فإنها لـم تكـن موجـودة فـى نظـام ما قبل اتفاق الطائف, حيث كانت هناك أرجحية مسيحية في عـدد المقاعد (مبـدأ ٦ و٥ مكـرّر). أمّا فيمـا يتعلـق برئاسـة الجمهوريـة وقيـادة الجيـش وحاكميـة المصـرف المركـزىّ, فقـد نجـح الموارنة بالاحتفاظ بهذه المناصب الثلاث حتى بعد انتهاء الحرب في أجواء من الهزيمة عاشها الاجتمـاع المارونـيّ فـي نهاياتهـا. لسـنا إذاً بالتالي أمـام خطـاب تظلّمـى يطالـب بمزيـد مـن المناصـب أو المقاعـد للمسـيحيين، وإنمـا هــو خطـاب يتظلّـم مـن الأسـلوب المعتمـد لشـغل هــذه المقاعــد. وهــذا يختلــف فــى الحالــة الشــيعية مثــلًا، ففــى عـام ٢٠٠٩ مثـلاً طالـب المفتـي الجعفـري الممتــاز

الشيخ عبد الأمير قبلان باستحداث منصب نائب رئيـس جمهوريــة شــيعـىّ، ممــا أثــار موجــة مــن التشــنّج حيــال هـــذا الاقتــراح لأيــام. وفــى الحالــة الدرزيــة، هنــاك منــذ اتفــاق الطائــف مطالبــة برئاســة مجلــس الشــيوخ للــدروز حيــن اســتحداث هـذا المجلـس, وهـو توافـق أشـارت عـدة مصـادر إلى حصولـه أثنـاء المـداولات بالطائـف. ولا يمكـن الفصـل بشـكل واضـح فـي هــذا المجـال طالمــا أن رئيـس المجلـس النيابى السـابق حسـين الحسـيني لـم يُخـرج محاضـر اتفـاق الطائـف إلـى العلـن بعـد المسيحية قياسًا على هذيـن المثاليـن: إذ ليسـت الأولويــة فــي خطـاب التشـكّي المزمــن مــن ســوء التمثيــل للمطالبـــة بــ «المزيــد مـــن» ولا حتـــى للمطالبـــة بـــ «الحصّـــة» التـــى ترجـــع للمســيحيين فــى مؤسســات الدولــة, مــا دامــت هـــذه الحصّــة مؤمّنــة، وإنّمــا الاولويــة فـــي هـــذا الخطــاب هــى للطعــن بمــن يعتبــرون لا يمثّلــون الجســم المســيحـى كفايـــة فيمـــا هـــم يتولّـــون النيابـــة والـوز ارة والرئاسـة بحكـم أنّهـم مسـيحيون. خطاب التشـكّي المزمـن مـن سـوء التمثيـل المسـيحيّ يقــوم علــى از دواجيــة داخليــة إذاً: هــو موجّــه مــن جهــة إلــى الطوائـف الأخـرى التــى يختــار ناخبوهــا النــواب المســيحيين بنســبة كبيــرة، وهــو موجــه كذلـك إلـى فئـات مـن المسـيحيين, ليـس لأنهـم غيــر مســيحيين كفايــة علــى الصعيــد الدينـــى،

بـل لأنّهـم غيـر مسـيحيين كفايـة علـى الصعيـد التمثيليّ «التجسـيديّ» سياسـيًا لشـعب المسـيح. هنـاك إذًا بُعـد «لاهوتـي سياسـيّ» يفتـح خطـاب التشـكي المسـيحي المزمـن مـن سـوء التمثيـل عليـه, ولـو اكتفـى بإضمـاره, أو بالتعبيـر المتقطّع عنــه دون تماسـك نظـريّ.

۳ – لا تجــد فــي خطابــات «الحرمـــان» الشــيعــى, أو «الإحبــاط» الســنّــى, أو «الإنطـــواء» الــدرزيّ, عندمــا يتــم طرحهــا فــى وقــت مــن الأوقــات, ربطًــا «وجوديًـــا» لاســتمرار الصيغــة الكيانيــة اللبنانيــة بمعالجــة هــذا الحرمــان أو الإحبــاط أو الإنطــواء, فـــي حيــن تغلــب النغمـــة المزمــن مــن ســوء التمثيــل، أي أنّ هــذا الخطــاب يصــرّح عــن نفســه فيقــول إنّــه يعتبــر تصحيــح الخلـل فــي التمثيـل وسـيلة وليـس غايــة بذاتهــا, وسيلة لتمكيـن المسـيحيين مـن الحفـاظ علـى وجودهــم فــی لبنــان، وربطًــا بــه الحفــاظ علــی وجـود لبنــان. يكثّـف خطــاب التشــكي مــن ســوء التمثيـل هــذا الأيديولوجيـا اللبنانيــة السـائحة منذ فتــرة الإنتــداب الفرنســـي: الوجـــود المســيحـي فـى لبنــان هــو الضامــن لاســتمرار وجــود لبنــان، ووجــود لبنــان هـــو الضامــن لاســتمرار وجــود المسـيحيين فيــه وفــى الجــوار العربـــيّ.

3 – المدى الزمني: شاع خطاب الحرمان الشـيعي فـي السـتينيات والسـبعينيات, لكنـه تحــوّل إلـى خطـاب انتصـاريّ منــذ انتفاضــة ٦ فبراير/شـباط ١٩٨٤. أمــا خطـاب الغبــن اللاحــق بالطائفــة الســنّية فهــو يختفــي ويعــود, وهــو مختلــف عندمــا تتــم الإحالــة إليــه علــى وقــع أزمــة حكوميــة بيــن رئيـس الجمهوريــة ورئيـس الحكومــة, أو عندمـا تتــم الإحالــة إليــه علــى وقـع الحكومــة, أو عندمـا تتــم الإحالــة إليــه علــى وقــع في الطائفــة السـنية فياديــة سياســية أو دينيــة فــي الطائفــة السـنية (المفتــي حســن خالــد, الرئيـس رفيــق الحريــري), وهــذا يختلـف بـدوره عن خطـاب «الدفــاع عن أهـل الســنّـة والجماعــة» فــي ســياقـه اللبنانــيّ (وهــو

مرتبط بالجماعـات الإسـلامية والموقوفيـن مـن أعضائهـا وأنصارهـا فـي السـجون اللبنانيـة). فـي المقابـل، خطـاب التشـكي المسـيحي مـن سـوء التمثيـل هــو خطـاب مزمــن علــی درجــة عاليــة مـن التواصـل، يمكـن تتبـع خطـه التراكمـي منـذ الحــدث المؤســس لــه، انتخابـات ١٩٩٢، ووصــولًا إلــی فتــرة مــا بعـد انتخـاب العمـاد ميشــال عــون لرئاســـة الجمهوريــة، ثــم الأزمــة الأخيــرة حــول قانــون الانتخــاب التــي انتهــت بإقــرار صيغــة قانــون الانتخـاب التــي انتهــت بإقــرار صيغــة النظـام النســبي فــي خمــس عشــرة دائــرة، باللوائــح المقفلــة، والصــوت التفضيلــي علــي مســتوى القضـاء.

في لبنـان «الطوائـف ليسـت طوائـف إلا بالدولـة – لا بذاتهــا، كمــا يوهــم الفكــر الطائفــي -والدولــق فــي لبنــان هــي التــي تؤمّــن ديمـومـــة الحركـــة فــي إعــادة إنتــاج الطوائــف كيانــات سياســية هـــي، بالدولــة وحدهــا، مؤسســات

ثالثًا: الحـدث المؤسـس للشـكوى مـن ســوء التمثيــل: انتخابــات ۱۹۹۲ والمقاطعــة المسـيحية الواسعة لها وتداعيات الموضوع

مــا بيــن أوّل انتخابــات (١٩٩٢) نُظّمــت بعـــد انتهاء الحرب، والتـى شـهدت أوسـع مقاطعـة مسيحية لهــا, احتجاجًــا علــى القانــون الانتخابــى الــذى اعتمـــد فيهــا، ومــا بيــن إقــرار قانــون الانتخـاب الجديـد فـي ١٦ يونيو/حزيــران ٢٠١٧, بعــد أربع سـنوات مـن تأجيـل الاسـتحقاق الانتخابـي، مــا بيــن هذيــن الحدثيــن، ثمّــة تاريــخ كامــل، ربے قــرن، مــن بلــورة خطــاب وتطــوّر دینامیــات «التشــكّى المســيحـىّ مــن ســوء التمثيــل»، أي ثمّـة لحظـات تكوينيـة فاصلـة ومراحـل مختلفـة مـرّ بهـا هـذا الخطـاب والقـوى التـى تنهـض بـه، وثمّـة درجـة تأثيـر مختلفـة مـن فتـرة إلـى أخـرى لهــذا الخطــاب علــى مجمــل الحيــاة السياســيّـة اللبنانيّــة. وقــد نجــح خطــاب «تحســين» تمثيــل المســيحيين فـــى فــرض نفســه بشــكل أوثــق فــى الفتــرة الأخيــرة, وخصوصًــا مــع انتخــاب العمـاد ميشـال عـون لرئاسـة الجمهوريـة بعـد عاميــن ونصــف مــن الشــغـور فــي ســـدة الرئاســة, والاتفــاق علــى قانــون انتخابــې جدیــد وجــد فیــه الثنائــى الحزبــى المسـيحـى (تيــار الرئيــس عــون والقـوات اللبنانيـة) الصيغـة الأفضـل فـي الظـرف الحالـي لمـا يطالبـون بـه مـن تصحيـح الخلـل فـي التمثيــل السياســـى بيــن الطوائــف.

الحـدث المؤسس والمنتِـج للشـكوى المسـيحية المزمنـة مـن سـوء التمثيـل هــو انتخابـات ١٩٩٢ التــي لـم تُنظـم لا علـى أسـاس قانــون الإنتخــاب القديــم (قانــون الســتين) الــذي يعتمــد النظــام الأكثـرى متعـدد الأسـماء علـى أسـاس الأقضيــة,

ولا على أسـاس المنصـوص عليــه فــى اتفــاق الطائـف مــن اعتمــاد المحافظــة (منــذ نهايــة العشــرينيات مــن القــرن الماضــى اســتحدث لبنــان بيــن الأقضيــة، وهـــي مفصّلــة فــى الزمــن العثمانــي، وبيــن المحافظــات، وكل محافظــة تتكــون مــن مجموعــة أقضيــة, فــي ســياق توثيــق الربــط بيــن الأقضيــة التــى كانــت تشــكّل متصرفيــة جبــل لبنــان، والأقضيــة الجديــدة التــى دمجهــا الفرنســيون بالكيــان المولــود عـام ١٩٢٠, لبنـان الكبيـر), إنمـا مــن بعــد النظـر فــى التقســيم الإدارى. نُظّمــت علــى أســاس استنسابي: اعتمـدت المحافظـة دائـرة انتخابيـة, بالنظــام الأكثــرى، فــى كل المحافظــات ذات الأكثريـــة الإســلامية, أمـــا فـــى المحافظــة ذات الأكثريــة المسـيحية, بـل المارونيــة, جبـل لبنــان, فاعتمــد الانتخــاب علــى أســاس القضــاء (ســتة أقضيــة). ارتبــط ذلــك بتقاطــع فــى المصالــح بيــن الوصايـــة الســـورية وبيـــن الزعيـــم الـــدرزي وليـــد جنبــلاط. اعتبــار جبــل لبنــان محافظــة واحـــدة يســمح للمســيحيين باختيــار نــواب الــدروز فــي عاليـه والشـوف، أسـوة بأرجحيـة المسـلمين فـي المحافظــات الأخــرى, حتـــى عنــد اختيــار النـــواب المسـيحيين. كمــا أنّ الإبقــاء علــى جبــل لبنــان كمحافظـة واحـدة علـى الصعيـد الإنتخابـيّ مـن شـأنه أن يوجــد قاعــدة نيابيــة واسـعة للمطالبــة بالتعجيـل بإعـادة انتشـار الجيـش السـورى باتجـاه البقـاع المنصــوص عنــه فــى اتفــاق الطائــف، والــذى كان مرتقبًــا عــام ١٩٩٢.

فـى مواجهــة هــذا القانــون الإستنســابــى, تنــادت القــوى الحزبيــة المســيحية إلــى مقاطعــة الإســتحقاق, بتشــجيع مــن الكرســي البطريركــى المارونــى فــى بكركــى. حــدث ذلــك فــى فتــرة كانــت أوضــاع هـــذه القـــوى لا تـــزال مختلفـــة: فتيـــار العمـــاد عـــون كان مقموعًـــا ومحظـــورًا بعــد الحســم العســكري الســوري ضــد منطقــة سـيطرته فــي قصــر بعبــدا والمتنيــن، ولجوئــه إلى السفارة الفرنسية ثـم نفيـه إلـى باريـس. أمّــا «القـــوات اللبنانيـــة» التـــى قبلـــت باتفـــاق الطائـف بشـكل أوضـح بعــد اصطــدام عــون بهـا فـى حـرب انتـرا مسـيحية ضـروس, فكانـت ممثلــة بالحكومــة, ومتشــكية مــن ســوء تمثيلهــا وســوء تمثيــل المســيحيين بشــكل عــام فـــى الحكومـــة (وفـــى التعيينــات النيابيــة عـام ١٩٩١ التــى أظهــرت بوضــوح تعاظــم النفــوذ السـورى), وكذلـك «حـزب الكتائـب». جـاءت نسـبـة المشاركة المسيحية في الانتخابات متدنيـة جـدًا, فامتـلأت المقاعـد المسـيحية فـي المجلس النيابــى بشـخصيات بعضهــا وصــل بــــ ٤١ صـــوت أو ۱۰۰ صــوت (كمــا فــي قضــاء جبيــل)، وفــي غيــاب عـارم للتقاليــد السياسـية المسـيحية الأساسـية فــى ذلــك الوقــت إذا مــا اســـتثنينا زعامـــة آل فرنجيــة فــى الشــمال المارونــى (الشــمعونية, الكتائــب، الكتلــة الوطنيــة، القــوات، العونيـــون). سَــهُل بعــد هــذه المقاطعــة إخــراج التقاليــد السياسـية المسـيحية التـى كانـت سـائدة قبـل الحــرب أو أثنــاء الحــرب مــن النيابــة والحكومــة, وابقــاء قيــادات فـــى المنفـــى (ميشــال عـــون, ريمــون ادة، أميــن الجميّــل), والتمهيــد بعــد ذلــك

بسنتين لحظر «حـزب القـوات اللبنانيـة» وسـجن قائــده ســمير جعجــع، أولًا بتهمــة تفجيــره كنيسـة سـيدة النجـاة فــي ذوق مكايـل، ثـم بعـد انتزاعــه بـراءة للشــك فــي هــذا الملـف، بإدانتــه بمجموعــة مــن الجرائــم فــي فتــرة الحــرب، اذ اعتبــرت محاكمتــه بقضيــة تفجيــر الكنيســة تُســقط عنــه انتفاعــه بقانــون العفــو الــذي يغطــى جرائــم الحــرب).

الســؤال الــذي يطــرح نفســه هنــا: مــن اعتُبــر أنّــه المســؤول، بموجــب خطــاب التشــكي المســيحي مــن ســوء التمثيــل، فــي بداياتــه، عــن هـــذا الإجحــاف الحاصــل؟

الجــواب الــذي طغــى علــى خطــاب الشــكوى مــن ســوء التمثيــل فــي تلــك المرحلــة هــو: أنّ نظــام الوصايــة الســورية هــو المســؤول. انبثقــت عــن هـــذا الجـــواب وجهتــان مختلفتــان: واحـــدة تــرى أنّ تصحيــح الخلــل بالتمثيــل المســيحي يتطلــب التحــرّر مــن نظــام الوصايــة الســــوريّة أولاً, أو أقلّــــه ينبغــي أن يرتبــط هـــذا بــذاك, وثانيــــة تــرى أنّ تصحيــح الخلــل فــي التمثيــل المسيحيين بالوصــــاية الســـورية, وتأميــن جانبهــا, والعمــل بالوصــــاية الســورية, وتأميــن جانبهــا, والعمــل علـى التقاطع معهـا للإستفـــادة مــن ذلـك فــي المزاحمــة الطوائفيــة اللبنانيــة.

بالتــوازي, فــي كل مرحلــة مــن مراحــل الوصايــة الســورية علــى لبنــان, والشــكوى المســيحية المزمنــة مــن ســوء التمثيــل فــي ظلّهــا, كان هنــاك, بالإضافــة إلــى تحديـد المســؤول رقــم واحــد

بهـذه الوصايـة, إتجـاه لتحديـد الطـرف المحمـديّ (الســني أو الشــيعي أو الــدرزي) الــذي يقــف حجــر عثــرة دون تصحيــح المســيحيين لأوضاعهــم التمثيليـة, أو لأوضاعهــم فــي المحاصصــة, أو حتى لتصحيــح أوضاعهــم مــع الوصايــة الســورية.

فــى انتخابــات ١٩٩٢, اعتُبــرت الممانعـــة الدرزيــة ضـدّ اعتمــاد محافظــة جبــل لبنــان دائــرة واحــدة هــى المســؤول الداخلــى الأول عــن استنســابية القانـــون الانتخابـــى، إذ كان قانونًـــا بمعياريـــن مختلفيــن، واحــد لجبــل لبنــان، وثــان لبقيــة المحافظــات. وكان القانــون يجعــل الأكثريــة المسطمة تنتخب للمسيحيين ممثليهم إلى حـد كبيــر فــى المحافظــات الأخــرى, فــى حيــن لا يُعطى للمسيحيين «المعاملـة بالمثل» بالنسبة إلى الشطر الجنوبي مـن جبـل لبنــان. المفارقــة هنــا أن منظــار المجموعــة الدرزيــة فــى الجبــل كان شبيهًا لمنظور المجموعـة المسيحية فـى لبنـان ككل: الـحروز لا يريـحون أن يختـار المسـيحيون نوابهــم فــى الجبــل، ويحبــذون بقــاءه منقســمًا انتخابيًا بيـن الأقضيـة، والمسـيحيون لا يريــدون أن يختــار المســلمـون نوابهــم, ولا يريــدون فــوق

ذلـك أن يُحرمــوا مــن «المعاملــة بالمثــل» فــي المحافظـة الوحيـدة التــي يمكنهــم فيهــا اختيــار نــواب الــدروز والشــيعة والســنة، أى جبــل لبنــان.

لـم تكـن القـوى التـي تداعـت لمقاطعـة انتخابـات عـام ۱۹۹۲ مـن بيـن المسـيحيين كلّهـا علـى نفـس المســافة مــن واقــع الوصايــة الســورية, ولا مــن اتفاق الطائف. فمـن جهـة, تيـار العمـاد ميشـال عـون كان لا يـز ال يتعامـل مـع عـون بوصفـه رئيـس الحكومــة المؤقتـة المنفــى حديثًا, ويتعامـل مـع اتفــاق الطائــف كأنــه لــم يكــن, ومــع الإصلاحــات الدســـتوريـة التـــى أُدخلــت بمـوجــب الإتفــاق علـــى نـص الدسـتور, كأنّهـا منقضيـة بانقضـاء الاحتـلال. تَقبّلـت الطائـف, وكان «حــزب الكتائــب اللبنانيـــق» ينسـب لنفسـه دورًا أساسـيًا فـى صناعــة اتفــاق الطائــف. ومــع هـــذا التقــت كل هـــذه القـــوى على المقاطعـة المسـيحية الشـاملة, وحظيـت هــذه المقاطعــة بمباركــة ودعــم الكرســى البطريركـــى المارونـــى، ودشّـــنت الـــدور السياسـي الكبيــر لهــذا الكرســي فــي 🖊 مرحلـة الوصايـة السـورية علـى لبنــان.

> الحــدث المؤســس للشــكوى المســيحية هــو انتخابــات ۱۹۹۲ التــي لــم تُنظــم لا علــى أســاس قانــون الإنتخــاب القديــم (قانــون الســتين) ولا علــى أســاس المنصـــوص عليـــه فـــي اتفـــاق الطائــف

رابعًـا: صعـود دور الكنيسـة فـي مرحلـة الوصايـة السـورية و‹‹الإحباط المسـيحي››

وهكــذا, إذا كانــت فتــرة مــا بعــد المقاطعــة المسيحية الواسعة لانتخابـات ١٩٩٢ قـد شـهدت إيغـالاً مـن طـرف الوصايـة السـورية ومعاونيهــا فــي الداخــل اللبنانــيّ فــي قمــع التيــارات الشعبية المسيحية المناديـة بانسـحاب الجيـش الســـوريّ وفقًــا للقــرار الدولـــى ٥٢٠ (الحالـــة العونيــة والكتلويــة والشــمعونيـة) أو أقلّــه إعــادة انتشــاره نحــو ســهل البقــاع, تطبيقــاً للطائــف (الحالـــة القواتيـــة), فـــإنّ الكرســـى البطريركـــى المارونـــيّ نجــح فـــى حصــد رصيــد رمـــزى مهـــم لــه بمواكبتــه حملــة المقاطعــة، متجــاوزاً إلــى حـد كبيـر ضعفـه فـى السـنوات السـابقة (سـواء حيــن فشــلت البطريركيــة فــي تفــادي الفــراغ الرئاســى فــى خريــف ١٩٨٨, أو حيــن اصطدمــت برئيــس الحكومــة العســكرية المؤقتــة ميشــال عــون علــى خلفيــة قبــول البطريــرك بطــرس صفيــر باتفــاق الطائــف، ووصـــولًا إلـــى اعتبــار صفيــر حســم الجيــش الســورى لحالــة عــون فــى ١٣ أكتوبر/تشــرين الأول ١٩٩٠ بمثابـــة انقشــاع للكابــوس). **فــى نفــس الوقــت, لــم تذهــب** بكركــي إلــى الطعــن بشــرعية المؤسســات الدسـتورية القائمـة، بمـا فـي ذلـك المجلـس النيابــي المنتخــب عــام ١٩٩٢, لكنهـــا:

ا وسّعت شكوى سوء التمثيل، المبلورة في المقاطعة المسيحية لانتخابات
 ۱۹۹۲، فلم تعد شكوى من سوء تمثّل المسيحيين في المقاعد المخصصة لهم في البرلمان والحكومة والمناصب المفتاحية في الدولة، وإنّما شكوى من استمرار نفى قيادات

مسيحية (ميشـال عون, ريمون ادة, أميـن الجميّل) ومـن الملاحقـات بحـق أنصـار العمـاد عــون, ثـم من ملاحقــة أنصـار القــوات اللبنانيــة, واعتقـال قائدها. ٢– تبنّــت بكركــي الهاجــس الســياديّ

٧– تبنّــت بكركــي الهاجــس الســياديّ «المســيحيّ» بخصــوص الجيــش الســوريّ والضغــط لإخراجــه مــن لبنــان عمومــاً, وقبــل كل شــيء مــن المناطـق المســيحية التــي اجتاحهـا فــي ١٩٩٠ وتمثّــل هـــذا التبنــي فــي التســعينيات برفــع مطلــب تطبيــق البنــد مــن اتفــاق الطائــف المتعلــق بإعــادة انتشــار القــوات الســورية شــرقاً باتجــاه ســهل البقــاع وهــو مــا جــرّ علــى بكركــيّ حمــلات انتقـاد وتهجّــم قاســية مــن طــرف القــوى المواليــة وتهجّــم قاســية مــن طــرف القــوى المواليــة لدمشــق فــي لبنــان فــي ذلــك الوقــت.

٣— ربطـت بكركـي الخلـل الحاصـل بسـوء التمثيـل بيـن الطوائـف، والخلـل الحاصـل بعـدم تنفيــذ الشــق السـيادي مــن اتفــاق الطائـف، بالخلـل الحاصـل مــن عــدم احتــرام بنــد آخــر نــصّ عليــه الإتفــاق، وهــو بنــد حــلّ الميليشـيات. السرجمت المرجعيـة البطريركيـة هنـا تحديـداً مـع السـردية القواتيــة: نمــوذج ميليشـيا قويــة تمتلـك السـردية القواتيــة: نمــوذج ميليشـيا قويــة تمتلـك سـلاح مدرّعـات وسـلاح مدفعيــة وآلاف المقاتليـن تقــوم بحــلّ نفســها، فيحظــر الحـــزب السياســي التــي تشــكلت ضمنــه بعـد هــذا الحـل، فــي مقابـل الحفــاظ علـــى ميلشــيات أخــرى لأحـــزاب أخــرى، بــل والســماح بتطويرهــا، تحـــت رعايـــة الوصايــة الســوريـة، أو حتــى «مليشـــة» بعــض الأجهــزة الأمنيــة و»اقتطاعهــا» لقــوى طائفيــة بعينهــا. الأمنيــة و»اقتطاعهــا» لقـــوى طائفيــة بعينهــا.

٤ – كمرجعيــة محافظــة, لــم تذهــب بكركــى فــى نفــس الوقــت مذهــب الطعــن بشــرعية النظــام السياســـى القائــم فـــى ذلــك الوقت. بالعكس, قامت بجهـد لتلييـن الموقـف الشــعبى المســيحي الطاعــن بشــرعية اتفــاق الطائـف وكل مــا نتــج عنــه. بُنــى هـــذا الموقــف الشــعبي علــى الإحتجــاج علــى التنقيــص مــن صلاحيــات رئيــس الجمهوريــة فــي الطائــف. أمــا الخطاب البطريركي فعبّـرت عنه مقولـة «مهما كانــت صلاحيــات رئيــس الجمهوريــة يبقــى هــو الــرأس». صانــت بكركــى إذاً خصوصيــة العلاقــة بيــن البطريــرك المارونــى ورئيــس الجمهوريــة المارونــى، حتــى فــى المرحلــة التــى ظهــر فيهـــا أنّ الرؤســاء يأتـــون بإيعـــاز ســـوريّ، ورغـــم شـجب بكركــى لـكل مــن التعديليــن الدســتوريين «التمديدييـن» لــ إليـاس الهــراوى عـام ١٩٩٥ ولــ إميــل لحّــود عــام ٢٠٠٤, الا أنّ البطريــرك بطــرس صفيـر رفـض فـى نفـس الوقـت أن يقـوده شـجب يرأســه مارونــى.

التمديـــد، أو أن يقـــوده الخــلاف السياســـى مـــع الأجنــدة المواليــة للقيــادة الســورية عنــد إميــل لحـود, إلـى المصادقـة علـى خيـار إسـقاط الأخيـر فى فترتـه الممـددة بتعديـل قسـرى للدسـتور, بالضغط الشعبي في الشارع. بالتوازي, تطورت علاقــة إيجابيــة بيــن البطريــرك صفيــر ورئيــس الحكومــة رفيــق الحريــري (بيــن ١٩٩٧ و١٩٩٨ ثــم ۲۰۰۰ و۲۰۰۶). بقيـت انتقـادات الخطـاب البطريركــي محصــورة بمشــروع اعــادة الإعمــار الــذى قــاده الحريــرى فـــي التســعينيات، وتمديــد عــام ١٩٩٥ للرئيـس الهــراوى الــذى ســعى الحريــرى إليــه، بغيــة تأجيــل وصــول قائــد الجيــش آنــذاك إميــل لحــود إلــى الرئاســة لبضــع ســنوات إضافيــة. وفـي المقابـل, مـال الخطـاب البطريركـي إلـى وجهـــة النظــر التـــى تــرى أنّـــه، فـــى ظــلّ غيــاب القــوى السياســيــــة المســيحيـة الأساســيـــة, تكـــون الضمانــة للمســيحيين الكنيســة والجيــش الــذى

> فـي زمـن الوصايـة السـورية, نُظـر إلـى الكنيسـة وتحديــداً المارونيــة, ليــس فقــط كإطــار ‹‹أبــوي››, بــل أيضًــا كــ ‹‹وصــي›› إلــى حيــن عــودة القيــادات السياســية المســيحية الأبــرز

ورغــم أنّ المطارنــة الموارنــة لــم يكونــوا كلّهــم علـى نفـس المسـافة السـلبية مــن الهيمنــة الســـورية فـــى لبنـــان، إلا أنّ المنحـــى الـــذى سينجح البطريــرك صفيــر فـــى تغليبــه ضمــن مجلس المطارنـة هـو منحـى احتضـان الموقـف المسيحى الشعبى المنادى بتحريك مطلب جـلاء القـوات السـورية, أو فـي الحد الأدنــى إعادة انتشارها, خصوصًا في نضالات الحركة الطلابية في جامعات «المنطقة الشرقية» (والمنطقة الشرقية في تسميات الحرب الأهليـة لا تقتصـر علـى بيـروت الشـرقية, أى الأشـرفية وأنحائهــا, بـل تمتـد إلـى كل مـا هــو شــرق بيــروت, وإلــى مجمــل «المنحســر المســيحـيّ» مــن الأشــرفية إلــى بشــرّى, وتســتثنى المناطــق المســيحية فــي الشــمال اللبنانــي أو فــي البقــاع التــي كانــت تحــت نفــوذ الجيــش الســوري فــي فتــرة الحــرب (الكــورة, زغرتــا, زحلــة), وقــد حافظــت هــذه التســمية علــى حضورهــا طيلــة فتــرة

التسعينيات, ولا يــزال لهــا وقــع فــي الفتــرة الحاليــة إنمـا للإشــارة إلــى المناطـق المســيحية شــرقي بيــروت وليـس كامــل الرقعــة المســيحية فــي وســط الجغرافيــا اللبنانيــة), ومــن ثَــم فــي فضــاءات نقابــات المهــن الحــرّة.

في زمـن الوصايـة السـورية، نُظر إلـى الكنيسـة وتحديـداً المارونيـة، ليـس فقـط كإطـار «أبـوي»، بل أيضًـا كـ «وصـي» إلـى حيـن عـودة القيـادات السياسـية المسـيحية الأبـرز من منفاها (ميشـال عــون، أميــن الجميــل) أو خروجهــا مــن الســجن (سـمير جعجـع). هـذا الـدور دعمــه الفاتيـكان في التسـعينيات، مــن خـلال رعايـة أعمـال السـينودس مــن أجـل لبنـان، ثــم إصــدار الإرشــاد الرســولي الخــاص بلبنــان، ثــم زيــارة البابــا الراحــل يوحنــا بولــس الثانــي إلــى لبنــان فــي أـــار 199۷.

خامسًا: مانيفتسو ‹‹الإِرشـاد الرسولي››:

لتجريـد الخصـم مـن سـلاحه بالمصالحـة والسـلام

مـا بيـن مقـرّرات الجبهـة الوطنيـة ولقـاء سـيّدة البيــر فـــى بدايــات الحـــرب اللبنانيـــة, واتفــاق الطائــف فـــي نهاياتـــه، أي مـــا بيـــن طروحـــات «التعدديـــة الحضاريـــة» للجماعــات اللبنانيــة المختلفــة (مــا يفتــح علــى أفــق التحويــل الفدرالــى الترابــى للصيغــة اللبنانيــة، وعــدم الإكتفاء فقـط بصيغـة «الفدراليـة الشـخصية» غيـر الترابيـة), ومـا بيـن خطـاب الاندمـاج الوطنــى بالشكل الـذي جـاء فـي وثيقـة الوفـاق الوطنـي بالطائــف، وتحفّظــت عليــه فئــة واســعة مــن المســيحيين قبــل كل شـــىء مـــن زاويـــة أنـــه يسلب رئاســة الجمهوريــة صلاحياتهــا وينقلهــا إلــى رئاســة الحكومــة، جــاءت الصيغــة التـــي اعتمدهــا الإرشــاد الرســـولى ليوحنــا بولــس الثانــى، والمبنثقــة عــن الســينودوس مــن أجــل لبنــان, الـــذي نُظّــم بمشــاركة ممثليــن عـــن مختلف الطوائف اللبنانيـة, لتطـرح «مانيفسـتو» لعـب دورًا أساسـيًا فـى تقويــة موقــع الكنيســة المارونيـــة، وعلـــى رأســها البطريـــرك بطـــرس صفيــر، مــن أجــل إخــراج المســيحيين، ممــا اعتُبــر وقتهــا حالــة إحبــاط يعيشــون فيهــا.

اعتبــر الإرشــاد الرســولي أن «هـــذه الجماعــات المختلفــة هــي، بالنســبة إلــى هــذا البلــد، ثــروة وفــرادة وعقبــة فــي آنٍ، غيــر أن إحيــاء لبنــان، بالنســبة إلــى جميــع ســكان هـــذه الأرض، إنمــا هـــو مهمّــة مشــتركة»، ورسّــخ التعامــل مــع لبنــان نفســه ككيــان «تتســم جـــذوره التاريخيــة بالطابــع الدينــي»، متحدثًــا أيضًــا عــن «الجـــذور الدينيــة للهـويــة اللبنانيــة الوطنيــة والسياســية».

مـا فعلـه الإرشـاد هــو ضبـط الخطـاب «التجسـيدي» التــي تعطلـت آلياتـه مــع الحــرب (الدولــة اللبنانيــة كتجسـيد للــروح المارونيــة, الموارنــة كجســد للفكــرة اللبنانيــة, أو كــ «أم الصبــي» كمــا ظــلّ يــردّد الشــيخ بيــار الجميّــل) واســتصلاح مــا يمكــن اســتصلاحه مــن هــذا الخطـاب علــى الصعيـد الرمــزي المخفـف, وتأهيل الجماعـات المسـيحية لخطـاب يحاجــج فــي صحّــة البمثيــل مــن دون الإنغمــاس فــي النوســتالجيا لزمــن الهيمنــة المارونيــة قبــل الحــرب, ولا إلــى الطروحــات المتشــنجة لــ «مراجعــة» الصيغــة اللبنانيــة فــي اتجــاه تعميــق الفصــل بيــن المســيحيين والمســلمين خــلال الحــرب.

ووضع الإرشـاد الأصبـع علـى جـرح كان لا يــزال يعتمـل فـى البيئـة المسـيحية, ذلـك أن الحـرب اللبنانيــة اختتمــت بحــرب انتــرا مســيحية, عرفــت بإســم «حــرب الإلغــاء» بيــن ألويــة الجيــش الملتحقـة بالعمـاد ميشـال عــون, وبيــن القــوات اللبنانيــة بقيــادة ســمير جعجــع. فــى الفقــرة الثامنــة ينظــر الإرشــاد إلــي «كنيســة لبنــان» على أنهـا «جُرحَـت فـي صميـم جسـدها كسـائر المؤسســات فــى لبنــان ولكنّهــا امتُحنــت بنــوع خَاصٌ امتحانًا ذريعًا في ضميرها. فقد شاهدت بعـض أبنائهــا يُقتلــون ويَقتُلــون ويتقاتلــون وهـى لا تــزال تعانــى مــن نزاعاتهــم المتوقّــدة دائمًــا, وتؤلمهــا بطريقــة موجعــة الهّــوة العميقــة التــى حفرتهــا هــذه». ربــط الإرشــاد الرســولى بيــن تحقيــق المصالحــة المســيحية الداخليــة وبيــن إصــلاح الخلــل فــى العلاقــات الإســلامية

المسـيحية, والأهــم أنّــه ربــط الأمريــن بتقويــة الإلتــزام الدينـــى بيـــن المســيحيين. الفقــرة ١٥ مـن الإرشـاد: «الكنيسـة مدعــوّة, بالطبــع, إلــي التنبّــه لثقافــات اليـــوم, مميّـــزة فيهـــا الـــزرع الصالح مـن الـزؤان، ومـع ذلـك فمـن الأهميــة بمــكان ألا يستســلم البلــد والمنطقــة إلــى ظاهـرة العلمنـة. يعتقـد البعـض أن هنـاك اليـوم بالأحــري, «عـــوداً إلــي الديــن», يجــب التنبــه لـــه, واعتمـاد التمييـز اليقـظ تجـاه المواقـف الدينيـة. فــإن كان القصــد منهــا ارتــدادًا إلــى المنابــع الأصليــة للإيمــان والرجــاء, فقــد تتيــح الفرصــة لـــ «تبشير جديد»، وإلا فلـن يتعـدى الأمـر الظاهـرة السـطحية والملتبسـة». وهنــا, اعتمــد الإرشــاد موقفًـا مركبًـا تجــاه مــا انتشــر فـــى لبنــان التسعينيات مــن حــركات خدمــة مســيحية بيــن الشــباب موازيــة للعمــل الكنســى والرعــوى, اذ اعتبـر فـى الفقـرة ٧٤ أن «الحـركات المسـيحية, هـــى للكنيســـة الكاثوليكيـــة فـــى لبنـــان، كنـــز ثميــن, أعضاؤهــا يعيشــون فيهــا خبــرة حيــاة أخويــة, وحيــاة مســيحية خالصــة», مشــدّدًا فـــي نفـس الوقـت علـى التحقـق مـن «احتـرام هــذه الجمعيــات العلمانيـــة (أي غيــر الإكليروســية) للضوابـط الكنسـية, و»الطاعـة لسـلطة الرعـاة». شـدّد إرشـاد يوحنــا بولــس الثانــى علــى تعريــف لبنــان کــ «أمـــة حـــوار» ونــادی بــ «تكثيــف التعـاون بيــن المسـيحيين والمسـلمين فــى كل المجـالات الممكنــة, بــروح التجــرد, أي مــن أجــل الصالح العـام, وليـس مـن أجـل مصلحـة أشـخاص معينيــن، أو مــن أجــل مصلحــة طائفــة خاصــة, أو

أمـلاً بالحصـول علـى مزيـد مـن النفـوذ والسـلطة فـي المجتمـع» (الفقـرة ١٧). واعتبـر أنـه «متـى تعلّـم اللبنانيـون أن يتعارفـوا جيـدًا ويرضـوا رضًـا كامـلًا بالتعدّديـة وفّــروا لنفوســهم الشــروط الضروريــة لإقامــة الحــوار الحقيقــي»، مؤكـدًا علــى أنّ «مصيــرًا واحــدًا يربــط المسـيحيين والمسـلمين فـي لبنـان وسـائر بلـدان المنطقـة». كذلـك نــوّه البابـا لمسـيحيي لبنـان بــ «ضــرورة المحافظــة علــى علاقاتهــم التضامنيــة مــع العالــم العربــي وتوطيدهــا، وأدعوهــم إلــى اعتبــار انضوائهــم فــي الثقافــة العربيــة، التــي أســهموا فيهــا إســهامًا كبيــرًا».

ارتبط الإرشاد بديناميتين، مـن تحـت إلـى فـوق:
السـينودس، الــذي شــارك فيــه طيــف واســع
مــن الفعاليــات اللبنانيــة، ولعــب التحضيــر لــه
دور المتنفــس الواســع النطــاق فــي مرحلــة
اشـــتداد الهيمنــة الســورية علــى البلــد؛ ومــن
فــوق إلــى تحــت: بتنظيــم الكنيســة، والحــركات
المســيحية العلمانيــة، حلقــات واســعة لبــث
المسـيحيين، خصوصًـا فــي مرحلــة شــهدت إقبـالاً
المسـيحيين، خصوصًـا فــي مرحلــة شــهدت إقبـالاً
علــى الكنائـس والتديّــن فــي الوســط المسـيحــي
(ومــا يلحــق ذلــك مــن انتشــار الاعتقــاد بحصــول
أعاجيــب جديــدة، أو مواكبــة عمليــة تطويــب،
والتعبئــة المســيحية الإعلاميــة والجماهيريــة.
وأعــد عمليــة تطويــب الأب نعمــة الله الحردينــي،

أمــا أهــم مــا قدّمــه الإرشــاد فمُتضمّــن فــى الفقــرة: «ينبغـــى ألا يغيــب أبــدًا عــن البـــال أنّ القيــام بمبــادرة ســلام قــد يجــرّد الخصــم مــن ســلاحه, وغالبًــا مــا يحملـــه, علـــي التجـــاوب بإيجــاب ويـــد مـــــدودة, لأنّ الســلام, الـــذي هــــو الخيــر الأســمـى، يميــل إلــى الانتشــار. ويذكــر لنــا التاريــخ الدينــى أنّ قدّيســين كثيريــن كانــوا ينبــوع المصالحــة بمواقفهــم المســالمة, المرتكــزة على الصلاة وعلى الاقتـداء بيسـوع المسـيح». يكـون إذاً الخـروج مـن الإحبـاط المسـيحـى بالربـط بيــن المصالحــة المســيحية الداخليــة وبيــن المبـادرة إلـي مصالحــة اسـلامية مسـيحية. الفقــرة ٩٨: «يجــب اعتبــار المصالحــة ســبيلًا إلى سلام وطيح يقوم بيـن جميـع اللبنانييـن، ولتكبن خاتمية الحبرب المسبلحة خاتمية للحبرب بيــن المصالــح المختلفــة, وخاتمـــة لتنـــازع المصالـــــــ الشـــخصية, التــــى تكـــون, أحيانًــــا, أشــد خطــرًا, لأنّهــا قــد تصبــح صــراع / الـكل ضـد الـكل».

يكـون إذاً الخـروج مـن الإحبـاط المسـيحي بالربـط بيـن المصالحة المسـيحية الداخلية وبيـن المبادرة إلـى مصالحـة اسـلامية مسـيحية.

سادسًا: النقابية الدينيية في مرحلة «إستعادة السيادة»:

نموذج مارونيّ ... بروحيّة بولونيّة

لـم يتنـاول الإرشـاد مسـألة الهيمنة السـورية على لبنــان بشــكل مباشــر, لكنّــه أطّــر مرحلــة الدفــع الهيمنـة، وساعد علـى إحـداث نقلـة فـى التفكير السياســى المسـيحـى، بحيـث صــار مــن الأهميــة العمــل علــى توســيع حركــة اســتعادة الســيادة مـن إطارهـا المسـيحي الضيـق، إلـى إطـار وطنـي إسلامي مشـترك رسـم الإرشـاد معالمـه.

لــم يكــن فـــى وارد الإرشــاد دفــع الكنيســة المارونيــة باتجــاه ممارســة وظيفــة «ثيوقراطية» مـن أى نـوع, لكـن واقـع غيـاب عـدد مـن الزعامات الشــعبية المارونيــة, بالمنفــى أو فــي الســجن, واتجــاه قطاعــات واســعة مــن المســيحيين نحــو التـزام دينــى أوثــق، أعطــى زخمًــا أكبــر للكنيســة،

وبـدا ذلـك فـى اتجـاه معاكـس لعلاقـة الموارنـة مـع الفاتيـكان علـى المـدى التاريخــى الطويــل. فتحْت ضغط حركة الإصلاح المضاد الكاثوليكية, ومحاولـــة ترجمـــة هـــذه الحركــة عمليـــة إعــادة وإذا كانـــت بكركـــي لعبـــت دورًا رياديًــا واســـع التنظيــم الكنســي علــى نحــو مركــزي خاضــع لسلطة البابـــا, جـــرت عمليـــة إضعـــاف مركزيـــة البطريــرك داخــل الكنيســة المارونيــة، بــدءًا مــن «المجمــع اللبنانــى» أي المجمــع المقــدس للكنيســـة المارونيــة المنعقــد ســنة ١٧٣٦. حــدّ هــذا المجمــع مــن ســلطة البطريــرك وأعطــى للأســاقفة ســلطة عليــا علــى أبرشــياتهم, وألغــى ســلطة البطريــرك علــى الرهبانيــات،

وأتبعهــا مباشــرة بالكرســـى الرســولى، وقــد بدا ذلك متسقًا مع لعب «الرهبانيـة اللبنانيـة الســابع عشــر شــبان موارنــة مــن حلــب، لعــل أبرزهــم عبــد الله قراعلــي، دوراً فــي التحــول إلـى السـاعد الأيمــن لعمليــة تطبيــق مقــررات المجمـع التردنتينــي والإصـلاح الكنســي المضـاد ضمــن الجماعــة المارونيــة. وفــي مقابــل هــذا التقليــد «المجمعــيّ» الإضعافــي لســلطة البطريــرك، لصالــح كل مـــن مرجعيـــة البابــا فـــى الخارج, ومراكــز قـــوى الرهبانيـــة المارونيــة فـى الداخـل, ولصالـح اسـتقلالية ذاتيــة واسـعة للمطارنــة علــى مســتوى أكثــر محليــة, اســتمر هنــاك نــزوع مارونــي إلــى النمــوذج البطريركــي «الملكـي» لمرحلـة مـا قبـل ١٧٣٦, وكلّمـا امتلك البطريـرك هالـة كاريزميـة حولـه, كبولس مسعد فــي القــرن تاســع عشــر، أو يوســف الحويــك فــي زمــن تشــكل لبنــان الكبيــر، كلمــا عبّــرت هــذه النوســــــتالجيا للنمـــوذج القديـــم عـــن نفســـها.

النطــاق إبــان مؤتمــر فرســاي كلوبـــي ضاغــط لتوسيع حـدود لبنــان, فــإنّ واحــدة مــن مفارقــات لبنــان الكبيــر كانــت ضعــف مرجعيــة الكرســى البطريركــى فــى الحيــاة العامـــة اللبنانيـــة، وفـى حالـة البطريـرك الـذى أمضـى أطـول مـدّة فــى الســدّة خــلال فتــرة الاســتقلال اللبنانـــى عــن فرنســا وقبــل وقــوع الحــرب, أى البطريــرك بولـس المعوشــي، دخلــت البطريركيــة فــي

حالـة نـزاع مـع أكثـر رؤسـاء الجمهوريـة شـعبية فــي طائفتهــم، أي كميــل شــمعون، بحيـث خلعــت العامــة عليــه اســم «البطريــرك محمــد المعوشــي»، وظهــرت علامـات الضعـف أكثـر مع البطريــرك أنطــون خريـش. ومـا يجمـع المعوشــي بخريــش أنهمــا مــن الأطــراف الجنوبيــة للوجــود المارونــيّ، وليــس مــن قلــب جبــل لبنــان. هــذا بخــلاف البطريــرك بطــرس صفيــر الكســرواني، الآتــي مــن القضــاء الــذي تمــارس فيــه الكنيســة نفوذهـا الدينــي والتربــوي والثقافــي والإجتماعــي والتوجيهــي الإنتخابــي أكثــر مــن أي بقعــة أخــرى مــن لبنــان.

لمـا يعتبرونــه أن حصتهــم, أو أقلّــه الشــكل الــذى يبتغونـه لإدارة حصّتهـم». أمـا بعـد وصـول إميـل لحود, وابعاد الحريـرى عـن الحكـم, فقـد ظهـرت موضوعــة «النظــام الأمنـــى اللبنانـــى الســورىّ المشـــترك»، التـــي تركّــز علـــى ارتبــاط نظــام الوصايـــة الســـورية فـــي لبنـــان بمجموعـــة مـــن الضبـاط اللبنانييــن المعاونيــن لهــا الذيــن ربطــوا لبنــان بســوريا أكثــر فأكثــر، فــى مجــرى نزاعهــم مــع الحريــرى بالدرجــة الأولـــى، وبـــرّى بالدرجــة الثانيــة, والقمــع المتواصــل للتيــارات الســيادية المسـيحية, ولـم يكتفــوا بمقولــة «تــلازم المسارين» التفاوضييـن السـورى واللبنانـي فـي مفاوضــات الســلام, بــل ألغــوا المســار اللبنانـــى انطلاقــاً مــن مقولــة إميــل لحــود عــن «وحــدة المسار والمصير». كان لمجموعـة الضبـاط هــذه خطابًــا موجهًــا للمســيحيين، مختصــره أنّهـــم يقتـدرون أكثـر كلمـا تحالفوا مـع النظام السـورى أكثــر، ومــع «حـــزب الله» فـــى الداخــل. وكان الخطــاب يعتمــد نــوع مــن «نظريــة المؤامــرة» التـــي تعتبـــر أنّ أخصــام النظــام الســـوري فـــي لبنـان وخارجــه يريــدون «توطيــن الفلسـطيينيين»، وبالتالــي تحقيــق غلبــة عدديـــة ســنّيـة، علـــى حســاب كل مــن المســيحيين والشــيعة. ظهــر ســريعًا أنّ هــذه «اللاحريريـــة» التـــى تبناهـــا إميـل لحـود وفريـق الضبـاط المعاونيـن لنظـام الوصايــة الســورية غيــر شــعبية مســيحيًا, لا بــل أتــت بنتيجــة عكســية.

أخــرى, بالحـــؤول دون «اســتعادة» المســيحيين

وكان ينبغلى انتظار الانسلحاب الاسلرائيلي ملن جنــوب لبنــان, ووفــاة الرئيــس حافــظ الأســد, ثــم انتخابـات ۲۰۰۰ التـی شـهدت هزائـم واضحـة للوائح المدعومـة مـن شـبكة «النظـام الأمنـي» هـذه, لا سيما فـى بيـروت, ليتلقـط مجلـس المطارنــة الموارنــة اللحظــة، فــى ســبتمبر/أيلول ٢٠٠٠، بنداء مجلس المطارنـة الموارنـة، الـذي أطلـق عمليـة الضغيط مين أجيل انسيحاب القيوات السيورية مين لبنــان. وجــد هـــذا النــداء تطبيقاتــه أولًا بتشــكيل لقـاء قرنــة شــهوان برعايــة المطــران يوســف بشــارة, وتأييــد حثيــث مــن البطريـــرك صفيــر، كلقـاء يتـم خلطـة فريـدة مـن ممثلـى الأحـزاب, و»أعيــان جبــل لبنــان»، والمثقفيــن المســيحيين. أمــا الثقــل الشــعبى فعبّــر عــن نفســه بعــد ذلــك بأشــهر مــع عــودة البطريــرك صفيــر مــن جولــة أميركيــة لــم ينجــح فيهــا بلقــاء الرئيــس جــورج بــوش الإبــن، فــكان أن اســتُقبل بتظاهــرة جماهيريــة لافتــة عمّــت الســاحل الكســرواني. وبعــد ذلــك ترســخ هــذا الحــراك مــن خــلال «مصالحــة الجبـل» بزيــارة صفيــر إلــى منطقــة الشــوف, وقابلهــا النظــام الأمنــى بحملـــة اعتقــالات واســعة لناشــطي التيــارات الســيادية المســيحية فـــى ٧ أغســطس/آب ٢٠٠١.

لعبت تجربــة يوحنــا بولـس الثانــي البولونيــة دورًا مهمًــا فــي «المحــاكاة المارونيــة» لهــا. مــع فارق أساســي، فــي الثمانينيــات، تهــاوت الديكتاتوريــة الشـيوعيـة فــي بولونيــا بالتعــاون بيــن بابــا بولونــي فـــي رومـــا، وبيــن نقابــة التضامــن بقيــادة ليــش فاليشـــا فـــي بولونيـــا. فـــي الحالـــة اللبنانيـــة لــم فاليشــا فـــي بولونيـــا. فـــي الحالــة اللبنانيـــة لــم يكــن هنــاك هــذا الفاصــل بيــن «نقابــة التضامــن» وبيــن «الكنيســـة دور النقابــة الدينيــة، لتأطيــر الحــراك المســيحـي ثــم الوفاقــي الإســلامـي المســيحـي، لحركــة إســتعادة الســيادة. لكنهـــا أدت هــذا الــدور بمــا لهــا مــن نفــوذ فــي المجتمــع الأهــلــي، وبيــن النخـــب، وتكــوّن مجتمــع المحتمــع الأهــلــي، وبيــن النخــب، وتكــوّن مجتمــع محنـــى «ســيادى النزعــة» يقــوده البطريــرك.

ولمـا كان النظام الأمنـي يضـمّ ضباطًا مـن مختلف الطوائـف، تراجـع البحـث مسـيحيًا فـي تلـك الفتـرة عـن المسـؤول الثانـي بعـد الوصايـة السـورية عـن المظالـم بحـق المسـيحيين. وهـذا أفسـح المجـال لظهـور نظـرة تبسـيطية إلـى حـد كبيـر: اعتبـار أنّ توسـع النضـال ضـد الوصاية ليشـمل مسـيحيين ومسـلمين مـن شـأنه أن يحـلّ مـن تلقائـه كل مشـاكل المشـاركة فــي السـلطة بيـن المسـلمين والمسـيحيين.

كمــا الفئــة القليلــة مــن البطاركــة الموارنــة الذيــن اســتطاعوا أن يعــودوا لفتــرة وجيــزة للــدور «الملكـي» الـذى كان ينهـض بـه البطاركـة فـي زمـن مـا قبـل المجمـع اللبنانـى (سـيدة اللويـزة, ١٧٣٦)، كذلـك البطريــرك صفيــر، لــم يكــن مقــدّرًا لــه لعــب هـــذا الــدور لفتــرة طويلــة. إســهامـه الكبيــر فــي الدفــع باتجــاه الجــلاء العســكري والمخابراتــي الســوري عــن لبنــان، ومــا تــلاه مــن عـودة العمـاد ميشـال عـون مـن منفـاه, وخـروج سمير جعجع مـن سـجنه, ترافـق أيضًـا مـع أزمـة فــى الــدور الــذى تلعبــه بكركــى. رفــض صفيــر إســقاط الرئيــس الممــدّدة ولايتــه إميــل لحــود بالضغــط الشــعبي، فــي عــزّ المطالبــة بذلــك يــوم ١٤ مـــارس/آذار ٢٠٠٥, حيــن خــرج مئــات الآلاف مــن النــاس ينــادون بانســحاب الجيــش الســورى, ومحاكمـــة قتلـــة رفيـــق الحريـــري, والتشــــــــّـــــر بصـور ضبّـاط النظـام الأمنـي، ثـم اعتـراض مجلس المطارنــة بقــوة علــى الإبقــاء علــى قانــون انتخابــى استنســابي ســبق أن وضعتــه الوصايــة الســورية, لانتخابــات ٢٠٠٥, مـوجّهًــا التحذيــر «أعــذر مــن أنـــذر»، ومطالبًــا بــأن يكـــون الــ ٦٤ نائبًــا مســيحيًا فـــي المجلــس النيابـــي، ذوي رصيـــد تمثيلـــيّ مســيحــيّ. أرســـى هـــــذا النــــداء مبــــدأ المطالبــة بــأن تكــون المناصفــة فــى المقاعــد بيــن المســلمين والمســيحيين فـــى المجلــس النيابــى مناصفــة تامــة, وليــس فقــط مناصفــة شــكلية, أي أن يختــار المســيحيون نوابهــم, لا أن يختــار المســلمـون لهــم معظــم هــؤلاء النــواب. أُتبع هــذا البيــان بزخــم انتخابــى حازتــه اللوائــح المؤيــدة للعمــاد عــون فــى تلــك الانتخابــات,

بــدت الأمـــور حينهـــا كمــا لـــو أنّ الكنيســـة كانـــت «حارسـة أمانــات» الزعامــات الشــعبية المســيحيـة قبـل أن تفـكٌ محنتهـا فـى السـجن أو المنفـى، وأنّهــا مــا إن يعــود هــؤلاء إلــى تصــدّر الجمــوع حتــى تنكفــىء هــي عــن المجــال السياســي. لكـن الأمــور كانــت أعقــد قليــلًا مــن ذلــك. مــا حــدث كان تبــدّلًا فــى وظيفــة «النقابــة الدينيـــة»، فبحلًا مـن ربـط تصحيـح التمثيـل بإيجـاد قاعــدة جديــدة للتعاقــد بيــن المســيحيين والمســلمين, صــارت الوظيفــة تقريــب المناصفــة المحققــة أكثـر فأكثـر مـن المناصفـة المطلقـة المرغوبـة بيــن المســيحيين والمســلمين. بالتــوازي, ظهــر أنّ الجلاء السـورى غيـر كفيـل بذاتـه مـن تصحيـح العلاقــات بيـــن الطوائــف اللبنانيـــة, أو جعلهـــا تشــعر بــ «الإكتفــاء التمثيلــى أو المحاصــص». ســردية كاملــة أصيبــت بالاهتــزاز هنــا. بعــض

هذا الاهتزاز ترتبت عليه حالة انفعالية: اعتبار أنّ الوصايـة انتقلـت مـن الخـارج إلـى طـرف مهيمـن إسـلامي داخلـي. انقسـم المسـيحيون بنتيجـة ذلـك بيـن فريـق يعتبـر أنّ السـنّة هـم هـذا الطـرف، وفريـق يعتبـر أنّـه الشـيعة. ثـم دخلنـا فـي المقلـب الآخـر: اعتبـار أنّ «تحــرّر» دخلنـا فـي المقلـب الآخـر: اعتبـار أنّ «تحــرّر» المسـيحيين مـن سـطوة النــزاع المذهبـي الســني الشـيعي وتصالحهــم فـي مــا بينهــم كمسـيحيين، هــو الكفيـل بتحسـين أوضاعهــم, وتحصيـل حقوقهـم. غيـر أنّ هــذا الإعتبـار بقــي جزئيًـا: التخفـف مـن درجـة التحالـف مـع الزعامـة الســنية بــدت أصعـب مــن التخفـف مـن درجـة التحالـف مـع درجـة التحالـف مـع درجـة التحالـف مــع درجـة التحالـف مــع الزعامـة التحالـف مــع «حــزب الله».

أفضــل للوضــع التمثيلــي المســيحي، وتشــكّل بعــد انتخابــات ۲۰۰۹ بالفعــل «إجمــاع خطابــی سياســى» بــأن لا عــودة لقانــون الســتين, الــذى أكل عليــه الدهــر وشــرب، مــن دون النجــاح فــى اقتـراح بديـل لــه والاتفــاق عليــه. وهنــاك كانــت النقطــة الأكثـر حساســية فــي طـرح المسـألة، إذ طـرح «اللقـاء الأرثوذكســي» عـام ٢٠١٣ مشـروعه لقانــون الانتخــاب، القائــم علــى أن تنتخــب كل طائفـة نوابهـا علـى حـدة علـى الصعيد النسـبى. اللافــت أن المشــروع هـــذا اعتبـــر المســيحيين كلهــم يشــكلون طائفــة واحــدة، فــى حيــن أنّ دوائــر القيــد الانتخابــي تقسّــمهم إلــى أكثــر مــن خمــس عشــرة طائفــة, بمعنــى أنّ كل كنيســـة طائفــة, فـــي حيــن أن المشــروع اقتــرح أن تنتخــب كل طائفــة إســلاميـة، أي كل مـذهــب، السنة والشيعة والحروز والعلويـون, ممثليهـم منفرديــن. وافــق علــى هـــذا المشــروع الحزبــان المسيحيان صاحبـا التمثيـل الأكبـر فـى البرلمـان الحالــي (برلمــان ۲۰۰۹, الممــدد لــه مرتيــن منـــذ ٢٠١٣), التيـــار الوطنـــي الحـــر والقـــوات اللبنانيـــة، الأمـر الـذي قبـل بـه حليـف التيـار العونـي، «حزب الله»، ورفضــه حليــف القــوات، تيــار المســتقبل، مــا أدى إلـــى تخلّــع الرابطــة التحالفيــة هـــذه, التــى حملــت لســنوات طويلــة يافطــة «قــوى ١٤ آذار». النتيجــة كانــت أيضًــا تأجيــل الاســتحقاق الانتخابــي إلــى حيــن التوصــل لقانـــون متفــق عليـــه، فـــكان التمديـــد الأول ٢٠١٣ والثانـــي ٢٠١٥.

لهكـذا قانـون بعـد الآن, بـل المطلـوب تحسـين

يبقــى أنّ البطريــرك صفيــر قبــل اســتقالته، كان قــد أقــرّ «شــرعة العمــل السياســي المارونيــة» (٢٠٠٨)، والتــي اعتبــرت أنّــه «يكتمــل إحيــاء لبنــان بإنشــاء دولــة مدنيــة ديموقراطيــة حديثــة ذات نظـام سياســي واجتماعــي عـادل ومنصـف» علــى قاعــدة «التمييــز الصريـح، حتــى حــدود الفصـل، بين الديــن والدولــة تعتدّ الحيــن والدولــة تعتدّ بالديــن». مــرّ قريــب مــن عقــد علــى هـــذا الــكلام دون أن يكـون بالمســتطاع القــول أنّ هــذه الشـرعة أحدثـت منعطفــاً نوعيــاً كالــذي كانــت تحدثـه وثائق كنســية فـــي وقــت ســابق (الإرشــاد الرســولـي، كنســية فـــي وقــت ســابق (الإرشــاد الرســولـي، نــداءات مجلــس المطارنــة الموارنــة).

ومـع محاولـة البطريــرك بشــارة الراعــي القفــز إلــى صــدارة المشــهد المارونــي، فــي ظــل الثنائــي ميشــال عــون – ســمير جعجـــع، إلا أنّ مرجعيــة الكرســي البطريركــي لــم تعــد علــى مــا كانــت عليــه فــي أيــام صفيــر، هدفهــا العمــل مــن أجــل إخــراج الجيـش الســوري مــن لبنــان. مــا تعمّــق أكثــر فــي المقابـل، كانــت صــورة الطائفــة تعمّــق أكثــر فــي المقابـل، كانــت صــورة الطائفــة حدركــة مطلبيــة دائمـــاً بتحســين مــا تعتبــره حدوقهـــا»، لكــن الكنيســة المارونيــة صــارت أكثــر محدوديــة لجهــة الإشــراف عــــى هـــذا المســار.

أقــرّ البطريــرك صفيــر قبــل اســتقالته «شــرعة العمــــل السيــــاسي المــــارونية» (٢٠٠٨), والتــي اعتبــرت أنّــه «يكتمــل إحيــاء لبنــان بإنشــاء دولــة مدنيــة ديموقراطيــة حديثــة ذات نظــام سياســي واجتماعـــى عــادل ومنصــف»

ثامنــاً: «النقابيــة الدينيــة» فــي بدايــة «الجم_هورية اللبنــــانية» واليـــوم:

مفهــوم «النقابــات» فــى التيــار الــذي عــرف بالســوليداريزم – التضامنيــة مطلــع القــرن العشـرين. نـادى التضامنيـون بالنقابويـة كمخـرج كونهــا مصالــح فعليــة أو متخيلــة. مــن الصــراع الطبقــى الحــاد ومــن الفردانيـــة الحــادة. اعتبــروا أن المجتمــع ينجــز سِــلمه هــل فعــلاً أثــرت «نقابيـــة» دو جوفنيــل علـــى الاجتماعــى بشــكل أفضــل حيــن ينتظــم بأســره فـى نقابـات تتفـاوض فيمـا بينهـا علـى الـدوام, وليســت الدولــة إلا راعيــة لهــذا التفــاوض بيــن النقابــات المختلفــة, تلــك التــى تضــم العمـــال, وتلــك التــى تضــم أربــاب العمــل.

> اندثــر التقليــد «التضامنــی» الفرنســی ســريعًا فــى الجمهوريــة الثالثــة, وقســم منــه ذاب فــى الفاشية لاحقًا. لكن اللافت أنّ الرجل الـذي لعـب حورًا أكثــر مــن ســواه, فــى تركيــب نظــام الدولــة الطائفيـــة فـــى لبنـــان, أي المفـــوض الســـامـى المدنــی هنــری دو جوفنیــل، الــذی أشــرف علــی وضــع الدســـتـور اللبنانـــى وولادة الجمهـوريـــة اللبنانيــة, كان مــن «التضامنييــن» أو «النقابويين». بعــد عودتــه مــن مهمتــه فــی لبنــان وســوریا، أصـدر دو جوفنيـل كتابًـا صغيـرًا «لماذا أنـا نقابى؟» قحّم فيـه النقابيـة علـى أنهـا مكمّلـة للبرلمانية. اعتبــر «البرلمانيــة هــى نظــام التــداول بالأفــكار، والنقابويــة هــى نظـام التـداول بالمصالــح». فــى

فــى مــكان مــا، تشــبه الطوائــف اللبنانيــة نظــام الدولــة الطائفيــة شــىء مــن هـــذا, يتضــح حالمــا يجــري التعامــل مــع الطوائــف كنقابــات

تشكيل العقــد الاجتماعــي اللبنانــي بيــن الطوائــف كمــا لــو كانــت نقابــات مهنيــة أو قطاعــات ذات مصالحــة مشــتركة؟ الحســم فــى الإِجابــة فيــه تســرّع. يبقـــى أنّ دور دوجوفنيـــل الإشــرافي علــي عمليــة ولادة الجمهوريــة اللبنانيــة ودســتورها لــم يكـن ظرفيًــا أو عابـرًا, بــل أُثَّر بشـكل عميـق. فتحْـتَ إشـرافه حدثـت النقلـة مــن «دولــة الموارنــة» أي «لبنــان الكبيــر» ١٩٢٠-١٩٢٦ وهــذا واحــد مــن مجموعــة دويــلات إداريــة أنشــأها الإنتــداب الفرنســى فــى ســوريا (دولــة العلوييــن, دولــة جبــل الــدروز, دولــة حلــب, دولــة دمشــق, لبنــان الكبيــر) إلــى «دولــة للموارنــة» أي للعنصــر المارونــي فيهــا الغلبــة والهيمنــة. فــى البدايــة، ســعى دو جوفنيــل لإقنــاع البطريــرك إليــاس الحويـــك بمصلحـــة الموارنـــة فـي التخلـي عـن أقضيــة ضُمّــت إلــى لبنــان عــام ١٩٢٠, كــى لا تنقلــب الأرجحيــة المســيحية رأسًــا علــى عقــب فــى المســتقبل القريــب, ورفــض الحويـك الإقتـراح بشـدّة'، هــذا فــى وقــت كانــت

عندمـــا كان لا يـــزال ممكنــاً لشــارل دبّــاس أن يكـــون أوّل رئيــس للجمهوريــــة، ولرجـــل ديـــن مســـلم ســـنـي أن يترشـــح للرئاســـة

فــى لجنــة وضــع الدســتور لا يزالــون يطالبــون بذلـك. وتأسيسًــا علــى هـــذا المســـار, دعـــم دوجفنيــل وصــول شــخصية غيــر مارونيــة, هــو شــارل دبــاس مــن الــروم الأرثوذكــس، ليكــون أول رئيــس للجمهوريــة اللبنانيــة (٢٦ مايو/أيــار ١٩٢٦). تأسســت الجمهوريــة إِذاً باتّــكاء المنــدوب السـامي علـى ممثلـي الطوائـف الصغيـرة, رغـم مشــكلته مــع الطائفتيــن الكبرييــن, المارونيـــة التـى كانـت تريـد هيمنــة أوســع بكثيــر ممــا كان بإمـكان منـدوب سـام فرنســی مســؤول عــن كل أنحـاء ســوريا أن يعطيــه، والســنية التــى كانــت فــى ازدواجيــة بيــن الاندمــاج الوظيفــى فـــى جهــاز الدولــة اللبنانيــة الناشــئة وبيــن المشــكلة الحادة مع الكيان اللبناني الموسع. في نفس الوقــت, كان علــى المنــدوب الســامـى ولجنــة وضـع الدســتور إيجــاد صيغــة تســمح بتوســيع قاعــدة التعــاون لبنــاء الدولــة. واقتضــت الصيغــة المثلـى لهــذا التعــاون, التعامــل مــع الطوائــف علــى أنّهــا داخــل وخــارج جهـــاز الدولـــة فـــى نفـس الوقـت, داخلهـا وخارجهـا بشـكل مختلـف مــن طائفــة إلــى أخــرى أيضًــا. تحوّلــت الطوائــف بهــذا الشــكل إلــى حركــة مطالبــة دائمــة لمــا تعتبـره «حقـوق لهـا». مثـلًا: الحـق فـى رئاسـة الجمهوريـة. وقـد أثـار ترئيـس شـخص مـن الـروم الأرثوذكس للجمهوريـة، اسـتياء الموارنـة الذيـن اعتبــروا أن الفرنســيين طعنوهـــم فـــى الظهـــر، فطالبوا بإقرار عرف مارونيـة الرئاسـة (وهـو لـم يقــرّ بشــكل نهائــى إلا بعــد رحيــل الفرنســيين). وبعـد ولايـة شـارل دبـاس, انقسـم الموارنـة حـول لا تــزال فيــه طرابلــس وبيــروت وصيــدا وبعلبــك تبعـث بمذكـرات الاحتجـاج للمندوبيــة الســامية الفرنسية ولعصبة الأملم ضد الدملج القسارى لهــا بلبنــان. فــى هــذا الوضــع الشــائك, طــوى دوجفينـل صفحـة إعـادة تقليـص مسـاحة لبنــان, لكنــه مضــی فــی عملیــة وضــع دســتور لــه، إنمــا بتحجيــم نســبة الموارنــة فــي لجنــة وضــع الدســـتـور مـــا أثـــار اســـتياء الكنيســـة وحملـــة زعمــاء التيــار الشــعبـى فـــى الطائفـــة (إميــل إدة ويوسـف السـودا) علـى هــذه اللجنــة، ولئــن زيـد عـدد الموارنــة لاحقًــا إثــر هـــذا الإســتياء، إلا أنّ الأساســيين فــى لجنــة وضــع الدســتور وفــى مقدمتهــم ميشــال شــيحا كانــوا مــن الأقليــات المسـيحية الصغيــرة وليــس مــن الموارنــة. أمــا مــن الجهـــة الإســلامية، وتحديـــداً الســنية، فقوبلـت اللجنـة بحملـة مقاطعـة شـاملة. ومـع هــذا يلاحــظ مائيــر زاميــر أنــه، وبالرغــم مــن هــذا الامتنــاع, إلا أن «الكثيــر مــن وجهــاء الســنّـة وسياســـييهـم كانـــوا قـــد اندمجـــوا فعــلًا فـــي أجهــزة الدولــة الإداريــة, معتبريــن أن المحافظــة على المناصب التى وصلوا اليها أفضل بكثيـر مــن الاقتنــاع بـــدور صغيـــر فـــي دولـــة ســـورية موســعة». بالتالـــى، مضـــى دو جوفنيـــل فـــى التعــاون لتأســيس جمهوريتــه اللبنانيــة رغــم مشـكلته مـع القيـادات المارونيـة, التـي كانـت لا تــزال تتعامــل مــع المناطـق التــي جــرى ضمهــا عــام ١٩٢٠ كغنائــم, والســنيـة, التــى كانــت لا تــزال ترفع اقتراحــات للانتــداب للتوحــد مــع ســوريا, أو أقلــه لجعــل بيــروت مدينــة حــرة، وكان أعضــاء مَـن يريدونـه رئيسًـا (إميـل إدة أو بشـارة الخوري)، فترشّــح الشــيخ محمــد الجســر، الطرابلســي الســني، للرئاســة، فتحخّـل الفرنســيون لتعليــق الدســتور. فــي الفتــرة الانتدابيــة الفرنســية، بقيــت الطوائـف فــي المجـال السياســي، وضمـن المؤسســات الدســتورية المشــرف عليهــا كولونياليًــا، وبتدابيــر اعتباطيــة فــي مفاصــل كثيــرة، بمثابــة حــركات مطالبــة «نقابيــة دينيــة» مفتوحــة: لــم تكــن أعــراف التوزيــع قــد تكرّســت بعــد بشــكل حاســم وواضــح. كان لا يــزال ممكنًـا لأرثوذكســي كشــارل دبــاس أن يكــون أول رئيــس للجمهـوريــة اللبنانيــة (كذلــك بتــرو طــراد وأيــوب ثابــت لــم يكونــا مــن المـوارنــة) ولرجــل ديــن كمحمــد الجســر أن يترشــح للرئاســة ويكــون الأوفــر حظّــا لهــا مطلــع الثلاثينيــات.

سوسر حصا سا سمت المسلمة الشاليتيات. وهــذا يختلـف عــن الفتــرة الحاليــة. الآن لــم تعــد هنـــاك جماعــات تطالــب بتغييــر حـــدود الكيــان اللبنانــي أو الانضمــام إلــى كيــان آخــر. لــم نعــد نــرى مســلمـين يترشــحون لمناصــب باتــت تعتبــر

بالعرف من حصة الموارنة (رئاسة الجمهورية، قيـادة الجيـش، حاكميـة المصـرف) أو السـنة أو السـنة أو الشـيعة (فــي بلــد يلحــظ فيــه حتــى أن يكــون رئيـس الإتحـاد العمالـي العـام أو رئيـس مجلـس إدارة تلفزيـون لبنـان مـن الـروم الكاثوليـك). حتــى المـداورة علـى بعـض وظائـف الفئـة الأولـى في الدولـة اعتبـرت مدخـلاً مــن الأفضـل ســدّه إلــى حيـن. هنـاك إذا التـزام قــوي – حتــى إشـعار آخـر بالقســمة علــى مــا رســت عليــه فــي نهايــات حــول تعبئــة كل طائفــة للحصّــة المعطــاة لهــا, وهــل إنهــا تقــوم بمــلء حصتهــا بمعرفتهــا, وهــل إنهــا تفعــل ذلــك بمشــاركة الطوائــف الأخــرى، أو أنّ هنــاك فــي واقــع الأمــر طائفــة تقــر عــن أخــرى ممثليهــا.

تاسعاً: بكركي في الصراع. الصراع على بكركي

يبقــى كتــاب وضــاح شــرارة الصــادر عــام ١٩٧٥, «فـــى أصـــول لبنـــان الطائفـــى – خــط اليميـــن الجماهيـرى» مفصـلاً أساسـياً فــى تاريــخ البحـث بأصــل وفصــل المســألة الطائفيــة فـــى لبنـــان. شـرارة كان يومهــا فــى أقصــى يســار المشــهد اللبناني, لكنه على خلاف النظرة المهيمنة علـى اليســار التــى تتعامــل مــع الطائفيــة كانبعـاث مصطنـع لعصبيـات الجماعـات القديمــة والمزمنـة بتخطيـط إمبريالـى أو خدمـة لمصالـح الأوليغارشـية الماليــة, ذهــب إلــى أنّ الطائفيــة هــي ظاهــرة حديثــة, بــل وليــدة نشــأة الدولــة الوطنيــة, علــي أنقــاض الولايــات العثمانيــة ونظام السلطنة. كما يقول شرارة في طبعـة ٢٠١١ للكتـاب: «نشـأة هـذه الدولـة, علـى صورتهـا الحديثــة أو الغربيــة، حملــت الجماعــات علـــى النـزاع, وطلـب السـلطة واقتسـام المـوارد ورعاية اللحمــة الداخليــة مــن طــرق وأوجــه عديــدة»٬

اللافـت فـى «خـط اليميـن الجماهيـرى» لوضـاح شـرارة عنايته بدور الكنيسـة المارونيـة. تعاظمت سـلطتها بتحوّلهــا, خصوصــاً فــى مجــرى القــرن التاسع عشـر إلـى أكبـر المـلاّك فـى جبـل لبنـان, نتيجــة لتراكــم الأوقــاف, و«إزاء المقاطعجــي الذي يـزداد شراســة مـع انهيـار مركـزه وتعرّضـه للإفقار العام الـذى يصيب الاقتصاد القائـم على

رؤوف يزيــد ركائزهــا فــى صفــوف الفلاحيــن ثباتــاً ومتانـــة»". وهكـــذا تحولــت الكنيســـة إلـــى «الفريــق الوحيــد الــذى يملــك صلــة عضويــة بقاعــدة الحركــة الفلاحيــة كلهــا, وهــى الفريــق الوحيــد الــذى يراكــم الوظائــف التنظيميــة والعســكرية والايديولوجيــة والاقتصاديــة, ولا ينازعهــا هـــذا التعــدد ســـوى فريـــق التجـــار»٤. وهكـذا نجحـت الكنيسـة المارونيـة فــى القــرن التاسـع عشـر فـى أن تتحـول «إلـى مؤسسـة ذات فــى نضــالات الفلاحيــن والحرفييــن والتجــار ضــد المقاطعجيــة الــدروز والمـوارنــة علــي الســواء»⁰. وكانــت فاعلــة داخــل الحركــة العســكرية التــى رافقــت الحركــة الشــعبية السياســية, وبالــذات فــى «الأخويــات» التــى كان مــن مقدميهــا العســكريين المطرانيــن يوســف أبــو رزق وطوبيــا عــون فــى مرحلتيــن مــن المواجهــات الأهليــة، وتبقــى الحالــة الأهــم هــى البطريــرك بولـس مسـعد نفسـه الــذي رعــي انتفاضــة فلاحلى كسروان الموارنية عللى المقاطعجيية الموارنــة والتــى امتــدت جنوبــاً لتصبــح انتفاضــة الفلاحيــن الموارنــة علــى المقاطعجيــة الــدروز وضــد الــدروز علــى نحــو أهلــي شــامل. خلاصــة شــرارة أن «الطائفيــة لــم تكــن موقفــاً هبــط مـن علـو افتعلتـه الكنيسـة أو ولـد فـى مخيلـة اســـتغلال الأرض» فقـــد أطلّــت الكنيســـة «بوجــه المرابيــن» وأن «الطائفيــة لــم تطــرأ علــي صــراع

[ً] وضاح شرارة, في أصول لبنان الطائفي – خط اليمين الجماهيري, بيروت, جداول, 2011.

[ٔ] شرارة, ص. 76 ٤ نفسه, ص, 123

اجتماعــي صــاف» بــل «كانــت الطائفيــة فــي فـي الكنيسـة، أي الرهبانيـة اللبنانيـة المارونيـة، مميــم صـراع جماهيــري، شـعبـي، عامــي، وهــي كان جناحـاً منخرطـاً فــي التنظيــر للقتــال – باتجــاه أحــد مرتكزاتــه الرئيســية قبــل أن تتحـــول إلــى إعــادة النظــر فــي الصيغــة الميثاقيــة اللبنانيــة «شــكله» الغالــب», «فالخــط الطائفــي، قبــل أن لعــام ١٩٤٣ خصوصــاً فـــي كراســات مــا ســمّي يتنـــاول النصــوص القانونيــة ويربطهــا بطابعــه وقتهــا، مــن طــرف أخصامهــم، بمجموعــة جاعــلاً مــن الممارســة الحقوقيــة عنصــراً مــن «حكمـاء الكســليك», بــل فــي التمــرّس بالجانــب عناصــر تجــدّده وفاعليتــه، تكــوّن علــى أرض الحربــي مــن الأمــور نفســه. هـــذا الانخــراط لــ ميــزان القــوى الفعلــي التاريخــي» أرض «الرهبــان» فــي الحــرب جــاء يذكــر بانخراطهــم

اســتند دور الكنيســة المارونيــة اذاً علــى قاعــدة شـعبية واسـعة, وناقمـة, علـى الأوضـاع التـى كانــت قائمــة فــى جبــل لبنــان، فــى مرحلــة تخلُّع سيطرة المقاطعجيـة، وقادهـا هــذا الــدور لاحقــاً إلــى تصــدّر حركــة المطالبــة الكيانيــة بتوسيع لبنــان مــن حــدود متصرفيـــة جبــل لبنــان إلــى حـــدوده الحاليـــة، لكــن دورهـــا السياســـى مــال إلــى التراجــع التدريجــي فــي مرحلــة مــا بعــد قيــام الكيــان, وبشــكل متعاظــم كلمــا كان «اليميــن الجماهيــرى» يأخــذه حيّــزه المســتقل عــن الكنيســة، وكلّمــا كانــت الكنيســة تتعــرّض لتأثيـرات حركـة التجديـد فـي الكنيسـة الجامعـة, خصوصــاً مـــع مجمــع الفاتيــكان الثانـــي. ومـــع الدخــول فــى الحــرب اللبنانيــة أمكــن تســجيل مفارقــة: دور الكنيســة السياســى تراجــع بنتيجــة اســـتقلال اليميــن الجماهيــرى ممثــلاً بحـــزب الكتائب يومهــا عنهــا, لكــن الجنــاح الراديكالــي

كان جناحاً منخرطاً في التنظير للقتال – باتجاه إعـادة النظـر فـى الصيغـة الميثاقيـة اللبنانيـة لعــام ۱۹۶۳ خصوصـــاً فـــی کراســات مــا ســمّـی وقتهــا, مــن طــرف أخصامهـــم, بمجموعــة «حكمـاء الكسـليك», بـل فــي التمــرِّ س بالجانــب الحربــي مــن الأمـــور نفســـه. هـــذا الانخــراط لـــ «الرهبــان» فـــي الحــرب جــاء يذكــر بانخراطهـــم فــى «أخويــات» القــرن التاســع عشــر، أيّــام اختــلاط الصــراع مــع المقاطعجيــة بالصــراع مــع الــدروز, لكنــه كشــف أيضــا عــن ضعــف المركز الكنسى، ضعـف الكرسـى البطريركـى، وبعــد بطريركيــن جنوبييــن، كان الضغــط عــام ١٩٨٦ للإتيــان ببطريـــرك مـــن قلـــب جبــل لبنـــان، مــن كســروان, بــل مــن ريفــون, التـــي انطلــق منهـــا أهـــم رمزيـــن لليميــن الجماهيــري الـــذي رعتــه الكنيســة ضــد المقاطعجيــة عــام ١٨٥٨, طانيــوس شــاهين وصالــح جريــس صفيــر. جسّــد وصول المطران الكسروانى بطرس صفيـر إلـى سـدّة البطريركيـة هـذا الاتجـاه. ورغـم اصطدامـه بالحالـة الشـعبية الواسـعة للعمـاد ميشـال عـون نهايــة الثمانينيــات, إلا أن صفيــر نجــح بالنتيجــة, فــى مجــرى التســعينيات, بدعــم مــن الفاتيــكان وفعاليــات الســينودس مــن أجــل لبنــان ثــم توجيهــات الإرشــاد الرســولى ومشــهدية زيــارة يوحنــا بولــس الثانــى إلــى لبنــان، كمــا نجـــح

بمــا امتلكــه مــن هالــة كاريزميــة واقتضــاب اســـتثنائي فـــى الــكلام, بحيـــث كان كلمتيــن منــه تثيــران أخــذًا وردًّا لأيــام طويلــة. نجــح صفيــر بــكل هــذه الظــروف والعوامــل فـــى أن يتحــوّل إلى «الزعيـم الشـعبى» للموارنــة فــى نهايــة التســعينيات وليــس فقــط إلــى «زعيمهـــم الدينــي». لكــن، وبنتيجـــة الجــلاء الســـوري عــام ٢٠٠٥, وعــودة العمــاد عــون وإطــلاق ســراح جعجـــع، لــم يعــد مــن الممكــن الســير قدمًــا فــى هـــذا الـــدور. قــاد صفيـــر فـــى ربيـــع ٢٠٠٥ حملـة التحذيـر مـن القانـون الانتخابـي المعتمـد وقتهـا, والموضـوع مـن قبـل الضبـاط السـوريين قبـل مغادرتهـم لبنــان، وطالــب تحذيــر المطارنــة الموارنــة يومهــا بــأن يكــون نــواب المســيحيين الــ ٦٤ يمثلـــون المســيحيين. وجـــاءت ردة فعـــل المسـيحيين وقتهــا علــى هـــذا القانــون, وعلــى التحالفــات بيـــن الأخصـــام السياســـيين يومهـــا فـي ظلّـه (التحالـف الرباعـي بيـن حـزب الله وتيـار المســـتقبل وحركـــة أمـــل والاشـــتراكـي – الـــذي انضمــت إليــه القــوات), واضحــة, بفــوز اللوائـــح المدعومــة مــن العمــاد عــون فــي كل الدوائــر ذات الأكثريـــة المســيحية، الأمــر الــذي اعتبــر أن صفیــر کرّســه بعــد ذلــك بقولــه «أصبــح لــكل طائفــة زعيــم».

إلا أن دور صفيــر بقــي ملحوظــاً حتــى الانتخابــات التاليـــة، ۲۰۰۹، إذ وجّــه عشــيتها النـــداء للانتخــاب ضــد خطــر يهــدد الكيــان، وعنــى بــه «حــزب الله» وحلفائـــه، ومنهـــم عـــون، واعتبــر هـــذا التحذيـــر

صنــواً لــ «التكليفــات الشــرعيــة» التـــي يصدرهــا قــادة «حـــزب الله» الدينيـــون لقاعدتهـــم, إلا أنّـــه محــدود أكثــر فــي شــكله وأثــره, ومــع ذلــك يمكــن القـــول إنّــه لعــب دورًا مؤثــرًا إذ جــاءت نتائج الانتخابـات فـى الدوائـر المسـيحية مختلفة جـــدًا عـــن انتخابـــات ٢٠٠٥. فـــي نفـــس الوقـــت, ومــع انحيــاز صفيــر الواضــح لــ «١٤ آذار» ضــد «٨ آذار» فــي تقســيمات ذلــك الوقــت, زاد الضغــط بيــن المطارنــة، وضمــن جهــاز الكنيســة، وفـــى الفاتيــكان, مــن أجــل دفعــه للاســتقالة, الأمــر الـذى حصـل عـام ٢٠١١. أمكـن بعدهـا للمسـيحيين أن يقارنــوا تجربتــه مــع تجربــة جديــدة, مــع البطريــرك بشــارة الراعـــي. بخــلاف صفيــر الــذي رفـض مرافقـة البابـا فـي زيـارة دمشـق، ذهــب الراعـي إليهـا فـي زيـارات رعويـة فـي عـز الحـرب الســـورية، ورافـــق البابــا فـــي زيارتـــه للأراضـــي المقدســة, فــي ظــل اســتياء عــارم مــن «حــزب الله» مــن هــذا «التطبيــع»، لكــن ذلــك حــدث مباشــرة بعــد زيــارة قــام بهــا الراعـــي إلـــى الجنــوب, تحــت رعايــة «حــزب الله». أبــدي الراعــي موقفًا متحفظًا بل سلبيًا مـن «الربيـع العربي»، وتحديـــدًا مـــن الثـــورة الســـوريّـة, وأســـالَ حبـــراً كثيـراً, والحالـة المؤتمريـة «القرنـة شـهوانية» انعقدت مـرة جديـدة، إنّمـا كحالـة اعتـراض علـى مواقــف البطريــرك, مــن خــلال «لقــاء ســيدة الجبـل». يبقــى أنّ موقــف الكنيســة المارونيــة ظـلّ «معتـدلاً» إذا مـا قـورن بالكنائـس الأخـرى «الدفاعيــة» و»الدفاعيــة هجوميــاً» عــن النظــام السـورىّ, وأصبحـت تشـاؤمية بشـارة الراعـي مـن الربيـع العربـي فـي سـنته الأولـى «أكثـر مـن عاديـة» اليـوم. أمّـا «تحالـف الأقليـات» الـخي يجاهـر بعـض المطارنـة بحماسـتهم اليـه، فلـم يكـن واردًا بـأنْ تعتنقـه الكنيسـة، وهــي فـرع مــن الكثلكـة، ولا أن تسـير بمفاضلـة لاهوتيــة وحزبيــة بيــن السـنّة والشــيعة، أو ربّمــا كانــت جرعــة «تحالـف الأقليـات» أكبـر ممــا تحتملــه «الأقليّـات المســلمة»، عندمــا قــرّر البطريــرك الراعــي الذهـاب إلــي القـدس فــي سـياق الزيـارة البابويــة، ومــدّد الإقامــة بزيــارة رعويــة خاصــة ضمــن الأراضــي المقدّســة.

لاحقًا، صار حضـور الراعـي أقـل مشـهدية وتأثيـرًا، كمـا أنّ معـدّل أعمـار المطارنــة الموارنــة مـال إلـى الشـيخوخة أكثـر فأكثـر إذ لم يعـرف تـداول الأجيـال طريقًا إليهـم، ويزديـه تفاقمًا عــدم ظهــور «لاهوتييــن نقديييــن شــبّان» داخــل الأكليــروس، يمكنهــم، أقلّــه، أن يســتظلّوا بمواقــف البابـا الحالــي فرنســيس الأول، للمطالبــة بالتغييــر...

هــل أنــه خريــف البطريركيــة؟ يرتبــط هـــذا إلى حــد كبيــر بمفارقــة. فــى فتــرة الحــراك الســيادي اللبنانــي لإخــراج الجيــش الســوري، كان يبــدو الوضــع اللبنانــي متلفّــق لمشــهد مياديــن الاعتــراض الجماهيــرى، علــى الطريقــة الأوكرانيــة، أكثــر مــن أي بلــد عربــي آخــر. أمــا فــي فتــرة مــا بعــد ٢٠١١, بــكل مــا شــهدته البلــدان العربيـــة, فقــد دخــل البلــد فــى حالــة ركــود تمثّلــت فــي تأجيــل الانتخابــات البرلمانيـــة منــذ ۲۰۰۹ حتــی تــم إجراؤهــا مؤخــرًا. خــلال هـــذه الفتـــرة، شــهدنا ثلاثــة تمديـــدات للمجلــس النيابي, وسنة فـراغ حكومـي, وعاميـن ونصـف فــراغ رئاســـى. بالتـــوازى، فكمـــا أن الطعـــن بالديموقراطيــة الطائفيــة القائمــة بلبنــان, بحجــة أن هنــاك طفــرة ديموقراطيــة ليبراليــة واســعة فــى المنطقــة العربيــة, بــات يفتقــد لنمــاذج يمكنــه التأســيس عليهـــا, فكذلــك التبشــير بــ «النمــوذج اللبنانــي» لتعميمــه فـى العـراق أو سـوريا أو اليمــن، لــم يظهــر أنّــه «الحــل الســحرى» الــذى كان يعـــوّل عليـــه.

> الديموغرافيــا اليــوم تعطــي أكثريــة للمســلمين علـــى المســيحيين، لكنهــا أيضًــا تلفــت إلـــى قسـمة عميقــة بيــن الســنّـة والشــيعة فــي لبنان.

والنمــوذج اللبنانــي فــي الديموقراطيــة لكــن الديموغرافيــا ليســت وحدهــا فــي هــذا الطائفيــة لــم يعــد يؤمّــن وظائــف كثيــرة كان المضمــار. ثمــة مــا يقابلهــا, وهـــو المنســي يؤمّنهــا فــي الســانق، منهــا إجــراء اســتحقاقات الأكبــر، الجغرافيــا الســكانية. لقـــد صنــع انتخابيــة تشــريعية. ليــس هنـــاك، كمــا جــرت المســيحيون بهزائمهــم فــي الحــرب اللبنانيــة الإشــارة أكثــر مــن مــرة فــي الورقــة، مطالبــة وانحســارهم أكثــر فأكثــر فــي وســط البــلاد، بتعديــل الحصــص، بقــدر مــا هنــاك مطالبــة بـــ منطقــة متجانســة ثقافيًــا ومجتمعيًــا فيمــا «ســيادة» كل طائفــة علــى حصتهــا. أمــا فــي بينهــا، تمتــد مــن شــكا حتــى كفرشــيما حتــى خلفيــة هــذه المطالبــة, فهنــاك معطيــان، زحلــة وديــر الاحمــر، ناهيــك عــن «جزائرهــا» يُفضّــل عــدم التركيــز علــى أحدهمــا دون الثانــي: مــن القبيــات حتــى جزيــن، وهــذا إن لــم نحتســب يُفضّــل عــدم التركيــز علــى أحدهمــا دون الثانــي: مــن القبيــات حتــى جزيــن، وهــذا إن لــم نحتســب الديموغرافيـــا، والجغرافيـــا الســكانية. الوجــود المســيحــي فـــي جبــل لبنــان الجنوبـــي.

الديموغرافيــا اليــوم تعطــى أكثريــة للمســلمين على المسيحيين, لكنها أيضًا تلفت إلى قسمة عميقــة بيــن الســنّة والشــيعة فــى لبنــان, بحيــث تبــرز كديمـوغرافيــا «مثالثاتيـــة» فـــى بلــد يقــوم نظامــه السياســی علــی «المناصفــة», وتجــری مـداراة النقـاش الأسـاس حـول الطابـع المؤقـت أو غيــر المؤقّــت لهـــذه المناصفــة. بالتـــوازي, فـإن الطائفــة الشــيعيـة تباهــي أكثــر مــن ســواهـا بمعادلـــة العـــدد, وحزبهـــا الخمينـــى إن شــطح فــي تحالــف الأقليــات, لا تفوتــه أي مشــادة مــع الزعيــم الــدرزي، لتذكيــر الــدروز بعددهــم، وكذلــك المسـيحيين، مـع إنّــه مــن قــال إن المسـيحيين ككتلـة أقـل مـن الشـيعة فـى هـذا البلـد؟ هـذا ناهيـك أنـه هـذا الصبـاح، وكل صبـاح حتـى إشـعار آخــر, يشــكل القاطنــون فــى لبنــان مــن الســنـة نحـو سـتين فـى المئـة مـن القاطنيـن فـى البلـد حاليـاً, مـع احتسـاب اللاجئيـن السـوريين واللاجئيـن الفلسـطينيين, ولا يمكـن وضـع هــذا المعطــي جانبـاً عنــد النظــر إلــى المســألة الديمـوغرافيــة.

المضمـــار. ثمـــة مـــا يقابلهـــا, وهـــو المنســـى الأكبــر، الجغرافيــا الســكانية. لقــد صنــع المسـيحيون بهزائمهـم فـى الحـرب اللبنانيــة وانحســـارهم أكثــر فأكثــر فـــى وســـط البـــلاد, منطقــة متجانســة ثقافيًــا ومجتمعيًــا فيمــا بینهـا, تمتـد مـن شـکا حتـی کفرشـیما حتـی زحلــة وديــر الاحمــر، ناهيــك عــن «جزائرهــا» مـن القبيــات حتــى جزيــن، وهــذا إن لــم نحتســب الوجــود المســيحى فــى جبــل لبنــان الجنوبـــى. لكـن فــى الإجمــال ثمــة وجــود مسـيحى متصــل بعضــه مــع البعــض الآخــر جغرافيًــا, ومتعــدد فـي كنائســه كمــا فــي تياراتــه السياســية لكــن على قاعدة كبيرة من الاندماج المجتمعي, وتحضــر فيـــه معالــم الدولــة اللبنانيــة حيثمــا تضطرب أو تغيب في المناطق الأخرى. وإذا مـا قمنـا بسـحب هـذه البقعـة المسـيحية المتصـل بعضهـا بالبعـض الآخـر جغرافيـاً, وهـى المناطـق الشــرقية فـــى أعـــوام الحـــرب, زائـــد المناطــق المســيحية تحــت الســيطرة الســورية فـــي الشــمال والبقــاع, فنحــن أمــام اختــلاف يظهــر حالـة الانفصـال الجغرافـي علـى صعيـد كلٍّ مـن مناطــق الســنّـة ومناطــق الشــيعة.

الديموغرافيــا تقابلهــا الجغرافيــا الســكانية إدًّا. كُّ منهمــا لا يمكــن الاســتمرار فــي اســتبعاد معطياتـــه بعــد اليـــوم, وهـــذا يعنـــي أن بدايـــة اجتــراح المخــارج مـــن الأزمـــة الحاليــة تكـــون بالموازنــة بيــن الأمريــن. هــل يمكـن ذلــك بالآليات «النقابيــة الدينيــة» للصيغــة الطائفيــة؟ لا, إلـــى حــد كبيــر، لأن مــن ســمات «النقابيــة الدينيــة» أنّهــا لا تفكّــر بـــ «العــدد»، حتـــى وهـــي تهـــوّن مــن أمــره، أكثــر ممــا تفكّــر بـــ «المســاحة».

أمـا «اليميـن الجماهيـري» المسـيحي، ممثـلًا خصوصًـا اليــوم، بالثنائــي العونــي – القواتــي، فلـم يعـد يحتـاج إلــى أي دور رعائــي مــن طـرف الكنيســة، ومحــاولات البطريــرك الراعــي للقفــز فــوق هــذا الثنائــي ظهــر تعثُّرهـا أكثــر فأكثــر، وقـاده الأمــر فــي نهايــة المطـاف إلــى نــوع مــن التقبــل لهــذه «الهامشــية» الحاليـــة. لا يلغــي هــذا أن الطرفيــن المسـيحيين الأكثر نفــوذًا اليوم، العونيــون والقــوات، لا يكتفــون بــ «البوانتاجـات» الانتخابيــة التشــريعيـة، بــل عينهــم أيضًـا علــى تركيبــة مجلــس المطارنــة. لكــن «الصــراع علــى بكركــي»، بهــذا الشــكل المباشــر، لـــم يبــدأ بعــد.



